ـ يا بابا ما تصدقش البنت اللمضة دى . النتيجة لسه ماطلعتش .

ـ حا تطلع إمتى ؟

ـ الأسبوع الجاى إن شاء الله .

ـ وحاتيجى على طول بعد النتيجة . مش كده ؟

ـ بعد النتيجة ؟.. لا .أصل أنت عارف يا بابا .. لازم أحضر للمشروع بتاع السنة الجاية .. وحاجات تانية ..

ـ يعنى حا تيجى إمتى يا خالد ؟ .. أنا مشتاق لك جدا يا ابنى ، وعايزك تقعد معايا أسبوعين أو تلاتة قبل ماتروح على مسابقة البطولة بتاعتك .

ـ أنا كمان مشتاق لك جدا يا بابا.

ـ يعنى حا تتأخر قد إيه يا خالد ؟

ـ بصراحة يا بابا .. مش عارف .

ـ ليه يا ابنى ؟

سكت خالد لثوان قبل أن يقول : اسمع يا بابا أنا بصراحة اعتذرت عن السفر للمسابقة .

ـ اعتذرت ؟ ليه يا خالد ؟ مش عايز تشوفنى ولا ايه ؟

ـ لا سمح الله يا بابا . الحقيقة صعب إنى أقول لك مش حا آجى أشوفك لأنى مشتاق لك فعلا . لكن أنا ما أحبش الكذب ...

ـ تكذب ؟ .. فيه إيه يا ابنى ؟ .. إنت تعبان ؟ فيه حاجة؟

ـ لا يابابا ، أنا كويس جدا الحمد لله . بس بصراحة أنا قريت فتوى بتقول إن الشطرنج حرام .. وأنا مقتنع بالكلام ده .

ـ حرام ؟ الشطرنج ؟

سكت خالد لثوان قبل أن يقول بلهجة قاطعة : أيوه يابابا .. حرام» .

★★★

ظللت فترة بعد المكالمة أقف مستندا بيدى إلى المكتب ثم دخلت المطبخ لأعد فنجان القهوة الذى كنت أنتويه . ولكنى بدلا من ذلك جلست على المقعد الصغير هناك ورحت أتطلع ساهما من نافذة المطبخ إلى العمائر المقابلة وإلى السماء والأشجار ، مشتت الذهن ، لا أستطيع أن استجمع فكرى .. وأخيرا وجدتنى أتمتم بصوت خافت :

ـ حرام . بالفعل حرام !

★★★

كان إبراهيم ينتظرنى فى صالة الاستقبال بالفندق ولوح لى بيده مبتسما بمجرد أن رآنى أدخل من الباب . ولكن عندما اقتربت منه وقف وبدا فى وجهه الانزعاج وهو يسألنى : ماذا بك ؟ أنت مريض ؟

قلت : لا ، أقصد هو مرضى العادى ، الضغط المرتفع . أحيانا يشتد ويسبب صداعا شديدا كما تعلم .

ـ ولكن لماذا خرجت ما دمت متعبا ؟ .. كان يمكن أن تتصل بالتليفون وكنت سأفهم .

ـ لا تهتم يا إبراهيم . أخذت حبة العلاج للضغط وسأصبح عاديا بعد قليل .

وكنا قد اتفقنا منذ الظهر أن نأخذ فى هذه الليلة هدنة من كل شىء وأن نذهب معا الى السينما . رأى إبراهيم إعلانا عن فيلم لورانس العرب وقال إنه شاهده منذ عشر سنين ويود أن يراه مرة أخرى لأنه أحب موسيقى الفيلم كثيرا . وأخذ يحاول أن يثنينى عن الذهاب الى السينما قائلا : إن الافضل أن أرتاح ولكنى أقنعته بأننى محتاج أيضا إلى شىء من الترويح وأن لورانس قد يكون مفيدا الآن .

قال إبراهيم : إذن سنتكلم عن ذلك فيما بعد . الآن ستأتى معى لنمر على الدكتور مولر. وعدنى بالأمس أن يعطينى قائمة كاملة بالمنظمات والجمعيات التى يمكن أن أراسلها .

ـ اتفقنا على هدنة من العمل فى هذا المساء ، أليس كذلك ؟

قال إبراهيم مبتسما : نعم ، ولكنى أخذت الموعد مع مولر منذ الأمس ، ولن تستغرق المقابلة طويلا على كل حال .

كانت المسافة قصيرة حتى الفندق الآخر. وبينما كان إبرهيم يحاول إقناعى مرة أخرى أن أرتاح هذه الليلة ، لم أتمالك نفسى «فحكيت له كل شىء عن مكالمة خالد . كنت أغالب دموعا وأنا أحكى له ولكنه قال لى بهدوء :

ـ لا تلمه يا صديقى . قلت لك هو الآن فى سن البراءة . ليس معنى هذا أنه لا يحبك أو أنه لايريد أن يراك . ولكن ما يؤمن به الآن أهم من حبه لك ومن حياته ذاتها . ألا تذكر أنت كيف كنت ؟ .. هل فكرت فى حياتك عندما دخلت بورسعيد تحت غارات الانجليز ؟

ـ المسألة تختلف . أيامها كانت هناك قضية ..

قاطعنى إبراهيم : تؤمن بها ؟ .. وهو أيضا يؤمن بقضيته ، فلماذا تختلف المسألة ؟ فى مثل سنه تقريبا أنت أردت أن تضحى بحياتك ذاتها ، وهو ضحى بشى أقل بكثير . ضحى برحلة كان يمكن أن يلقاك فيها .

ـ المسألة تختلف . فى رأسى فكرة لا أستطيع أن أشرحها لك بوضوح ولا حتى أن أشرحها لنفسى .. أقصد .. إن ما كنا نفعله فى شبابنا كان من أجل المستقبل .. من أجل الحياة .. ما ألاحظه بالتدريج عند خالد نوع من النفى الكامل للحياة .. المستقبل هو مابعد الموت فقط .. بالأمس أنت شرحت كيف كنا فى مثل سنه .. تلك الأحاسيس بالذنب حتى على الفكرة أو الخاطرة الشريرة .. ألم يكن هذا قبل أن نكتشف أننا لسنا ملائكة ولا شياطين ؟ اننا بشر نخطىء ونتوب ؟

قال إبراهيم ضاحكا : كنت أحدثك عن ذكرياتى ولكنى لست حجة فى شئون التوبة . أنا الآن إن كنت قد نسيت رجل ماركسى ! .. وعلى العموم فأنت لم تبق مع خالد لكى ..

توقف إبراهيم عن الكلام وغمغم باعتذار ولكنى تابعت فكرته :

ـ أفهم ماتريد أن تقول . لو بقيت معه لكان يمكن أن أؤثر عليه . ولكن

كيف كان يمكن أن أبقى ؟ .. منار وأنا عودنا خالد وهنادى منذ الصغر على الإقناع والاقتناع وعلى حرية الاختيار .بعد الطلاق اختار هو أن يبقى مع أمه وأخته ، وكان هذا من الأسباب التى دعتنى الى السفر . كان صعبا على أن أكون فى المدينة نفسها مع أولادى ولكنى بعيد عنهم. نرتب مواعيد للقاء مثل الأصدقاء والغرباء . مثل ..

سكت قبل أن يختنق صوتى بالدموع التى كنت أقاومها ، وكنا قد اقتربنا من فندق مولر فحاولت أن أهدىء نفسى قبل أن نترك ظلام الطريق الى صالة الفندق .

★★★

كان مولر يجلس فى البهو ومعه بريجيت ، يحتسيان البيرة صامتين وواجمين . فهمس إبراهيم فى أذنى ونحن نتقدم منهما :

ـ يبدو أنه هنا أيضا قد حدث شىء ما ، ولكن ماهو ؟

كان وجه مولر الذى يشبه القناع عادة مكفهرا ومتوترا فى هذه اللحظة. ولكننا عندما جلسنا أخرج من جيبه ظرفا أبيض كبيرا وقال :

ـ لم أنسك ياسيد إبراهيم . ستجد هنا كل العناوين .

فتح إبراهيم الظرف ورأيت ورقة طويلة مقسمة الى خانات مكتوبة بخط اليد لكنها منظمة ومنسقة تماما أكثر من أية ورقة مطبوعة .

وقال إبراهيم بعد تصفح الورقة : شكرا يا دكتور مولر . لن نعطلك أكثر من هذا . وهم بأن يقوم .

ولكن مولر قال : انتظر ، لو سمحت . ربما يمكن أن تساعدانى .

ثم التفت نحوى وقال : ربما أنت أيضا بالذات يمكن أن تساعدنى.

ثم سكت لحظة قبل أن يقول : بيدرو اختفى .

قلت : من بيدرو ؟

تذكرت فجأة وخجلت من نفسى لأنى نسيته قبل أن يرد دكتور مولر قائلا :

ـ بيدرو إيبانيز ، الذى كان فى المؤتمر الصحفى ، أخذ حقائبه وترك الفندق .

بدأ الدكتور مولر يشرح لنا أنه تعب كثيرا حتى حصل على تأشيرة الدخول لبيدرو لكى يتحدث فى المؤتمر ، فهم لا يرحبون هنا باللاجئين من شيلى ولا من أى بلد آخر . ولذلك فإن التأشيرة لا تسمح لبيدرو بالبقاء ، أكثر من أسبوع واحد . ورغم علمه بذلك فقد أخذ حقائبه وترك الفندق دون كلمة .

قال إبراهيم : ولكن لماذا تقلق الى هذا الحد يادكتور ؟ .. بيدرو ليس طفلا وهو يستطيع أن يتحمل مسئولية مافعل .

رد مولر فى توتر ولكن بتلقائية : المشكلة الآن ليست بيدرو لكنها المنظمة .

اختلست لحظتها النظر الى بريجيت فبادلتنى النظر وعلى شفتيها ابتسامة باهتة ، ولكن دكتور مولر لم يلاحظ شيئا واندفع فى شكواه قائلا إنه يخشى ألا يظهر بيدرو قبل انتهاء موعد التأشيرة فتواجه المنظمة متاعب فى البلد : ربما يقولون إن المنظمة تشجع الهجرة غير المشروعة فتسوء سمعتها هنا ، وهو يخشى إن حدث ذلك أن تهتز صورة المنظمة فى البلاد الأخرى أيضا .

سأل إبراهيم فى شىء من الحيرة :

ـ ولكن ما هى المشكلة بالضبط مع ذلك يا دكتور مولر ؟ لماذا هرب بيدرو؟

قال مولر مبتئسا : هذا ما أود أن أعرفه .

ولكن بريجيت وضعت كوب البيرة بعد أن رشفت جرعة كبيرة وقالت : ولكنك بالتأكيد تعرف يادكتور ! تعرف أنه منذ هرب من شيلى لم يحصل على إقامة شرعية فى أى مكان . وتعرف أنه كان يقيم فى النمسا فى مركز الاستقبال للهاربين من بلادهم وأن هذا المركز يشبه السجن .

قال مولر محتجا : كانوا يبحثون حالته وكانوا سيقبلونه لاجئا فى النهاية. من المؤكد أنه كان سيخرج من مركز الاستقبال .

فواصلت بريجيت بلسان ثقيل الى حد ما ولكنها تحاول مع ذلك أن تكبح

انفعالها : وكم كان سينتظر يا دكتور ؟ ... شهورا أم سنوات ؟ وكم تظن أن الإنسان يحتمل البقاء فى معسكر الاستقبال هذا ؟ .. أنت رأيتهم هناك فى المعسكر المجاور لبلدتنا . دعك من قسوة الحراس ، كم تظن أن الإنسان يحتمل نظرات العداء والكراهية من سكان بلدتنا الودودين ؟

غلب الغضب مولر فقال بالرغم منه : هو كان هاربا من شىء أسوأ .. وكان يجب أن يقدر مافعلته المنظمة من أجله !

قالت وهى ترفع الكوب مرة أخرى الى شفتيها : نعم .

ثم رجعت تسترخى فى مقعدها . كانت تلبس بنطلونا من الجينز وبلوزة بيضاء خفيفة وقد تركت شعرها يسترسل فى إهمال ، وبدت فى جلستها صورة للهمود والاستسلام .

ألقى إبراهيم نظرة سريعة نحوها ثم التفت الى مولر وقال بحرارة وانفعال حقيقيين : هذه مسألة تستحق أن نعمل من أجلها بالفعل يا دكتور . أصارحك أننى منذ حضرت ذلك المؤتمر بالأمس وأنا أشعر بالهم وبنوع من الذنب نحو هذا الإنسان .أنا سأكتب عنه فى صحيفتى الصغيرة ، ولكن كيف يفيده ذلك ؟ والآن أنت تقول إننا يمكن أن نساعدك، صديقى وأنا ، كيف ؟

قال مولر : نعم. «ثم التفت نحوى وأكمل» .. لابد أنك كصحفى مقيم هنا تتصل بجهات كثيرة وبأشخاص يمكن أن يساعدونا فى البحث عنه . أقصد بالطبع بعيدا عن الشرطة ..

ولكن قبل أن أرد هتفت بريجيت فجأة وهى تحدق فى إبراهيم : أيها الرجل كم أنت جميل !

ساد الصمت لحظة ، وصعد الدم إلى وجه إبراهيم وبدا على مولر نوع من الغضب ولكنه ابتسم فجأة للمرة الأولى وهو يقول بلهجة يائسة : ابنة هانز شيفر!

ثم تحول نحونا وأكمل : هكذا أبوها منذ عرفته من نصف قرن ! يفاجئك دائما بالعبارات الغريبة فى الوقت غير المناسب ..

قالت بريجيت : ولكن كل الأوقات مناسبة لتقول المرأة للرجل إنه جميل !

فتدخلت أنا : دائما ما كنت أقول لإبراهيم إنه أخطأ طريقه للصحافة ، وإنه كان سيصبح نجما عالميا لو اشتغل بالسينما !

لكن إبراهيم صاح غاضبا : كفى !

كان وجهه محتقنا وعابسا ولكن بريجيت اعتدلت فى مقعدها وتابعت تخاطبنى وهى تنظر الى ابراهيم : لا . نجوم السينما كالدمى ، أشياء مرسومة بالسنتيميتر المربع ! الجميل فى إبراهيم تلك الحياة فى وجهه ربما لو تأملته بالتفصيل فستجد مثلا أن فمه ..

فهتف ابراهيم مرة أخرى ولكن بما يشبه الضراعة : كفى أرجوك ! .. نحن نتكلم عن شىء أهم ..

فقالت بريجيت : هل أغضبتك ؟ أنا آسفة !

وقال مولر بلهجة حكيمة : فى مثل سن إبراهيم ، لا يسعد الرجل بأن يقال عنه إنه جميل . بل أن يقال إنه ذكى مثلا ...

فردت بريجيت متشككة ـ تعتقد ذلك ؟ لا أفهم ماتعنيه بالسن . ولكنى أعرف رجالا أذكياء مستعدين للتنازل عن كل ذكائهم مقابل أن يسمعوا ..

ثم وضعت بريجيت كوب البيرة على المنضدة أمامنا وأصبح وجهها جادا تماما ..

حدث لها مايحدث للأشخاص الذين يشعرون أنهم يتكلمون بتأثير الخمر ، فسكتت دون مقدمات .

وبعد فترة التفتت الى ابراهيم بتلك النظرة الجادة وقالت : آسفة إن كنت قد أغضبتك .. غير أنها لم تتمالك نفسها فتابعت وهى تضحك : ولكن ماذا أفعل إن كنت جميلا فعلا ؟ أنا لا أغازلك ولا أى شىء ، أريد فقط أن أقول إنك جميل !

وتابعت ضحكات قصيرة متقطعة وهى تضع يدها على فمها .

نظر إبراهيم الى ساعته ولكنى قلت له : لا تنظر الى الساعة . لورانس العرب يركب الآن جملا فى الصحراء وقد قطع به مسافة طويلة !

ثم سألنى : هل تضمن له أو يضمن له الدكتور شيئا أفضل مما يحاوله هو بنفسه؟

ولم يكن عندى رد ولكن برنار وافق مع ذلك على أن يقابل مولر . وظل يصحبنا فى أمسيات الأسبوع مع ابراهيم ومولر الى الجمعيات التى تعنى باللاجئين والى الأحياء الفقيرة التى تأوى الأجانب المقيمين بصورة غير شرعية، غير أننا لم نعثر على أثر لبيدرو حتى أوشك الأسبوع ان ينتهى .

وفى خلال تلك الأيام أيضا كنت أذهب الى إبراهيم فى الصباح لكى أصحبه الى مواعيده المختلفة مع الصحفيين ورجال الأحزاب السياسية ومع بعض العرب المقيمين فى البلد . أراد أن يكتب سلسلة من المقالات بعد أن يعود إلى بيروت ، وبدأ يجمع المعلومات التى تفيده وظل فى أثناء ذلك كله يعرض وثائقه عن المختطفين فى لبنان فيعدونه بتهذيب شديد بأن يبحثوا المسألة ولكنهم يختفون بعد ذلك . وكنا بين الحين والآخر نرى «الطالبة» فى صالة الفندق أو نجدها فجأة فى أحد المقاهى التى نجلس فيها ؛ يظهر معها فى بعض الأحيان شاب رياضى ويتصرفان كحبيبين يتعانقان ويقبلها وتقبله ولكن دون أن نغيب عن بصرهما . غير أنها كانت «تهجر» حبيبها فى بعض الأحيان فيضطر الى أن يتبعنا وحيدا .

وكان المكان الوحيد الذى صمم ابراهيم ان يذهب اليه بمفرده هو مكتب الحزب الشيوعى. يومها قابلنى فى المطعم بعد عودته مشرق الوجه وعيناه تلمعان بالزهو . قال لى : أخيرا رأيت أوروبا الحقيقية ! أخيرا عرفت أوروبا التى لم تعرفها أنت ! تصور أنهم هنا أيضا يضطهدون الشيوعيين كما يضطهدونهم فى بلدنا .. تصور أن الشرطة تلاحقهم وتراقب تليفوناتهم وأنهم يضيقون عليهم فى الوظائف والأعمال التى يجدونها بكل صعوبة ، بل تصور أنهم أحيانا لا يوافقون على إسكانهم فى البيوت الرخيصة التى تبنيها الدولة لمجرد أنهم شيوعيون !

سألته فى دهشة : ولكن ما الذى يسعدك فى كل هذا يا إبراهيم ؟

فرد بفخر : وجدت الرفاق هنا فى منتهى الصلابة ، رغم كل هذا الاضطهاد !

وبصعوبة منعت نفسى من الابتسام أو هكذا ظننت ، لأنه تابع حديثه

بنبرة تأنيب : أنت تسخر من هذا ؟ اسمع !.. كل ذلك الاضطهاد يملؤنى بالأمل على عكس ماتظن . هم هنا أقلية صغيرة ، أعرف ذلك جيدا، وصحيفتهم بحجم الكف كما قلت أنت ، ولكن لماذا يخافون منهم إلى هذا الحد وهم أقلية ؟ لا يوجد حزب شيوعى فى أوروبا يحمل السلاح أو سيحمله فى أى يوم لكى يسقط الحكم ، فلماذا يخافون منهم ؟ .. هل تريد أن تعرف الجواب ؟ لأنه طال الزمن أو قصر فهم البديل لأزمة أوروبا ولمشكلة العالم .. هم المستقبل وهم حتمية التاريخ .

قلت فى ذهول : ولكن يا إبراهيم ولا أعتى الشيوعيين يقولون ذلك الآن ! .. ولا حتى الكرملين نفسه يحلم بأن يحدث هذا فى الغرب ، ما الذى جرى لعقلك ؟

وهكذا كان يمضى بيننا النقاش على الغداء أو فى السيارة . نعاود الشجار والخلاف كما كنا نفعل أيام الشباب .. ورغم أننا لم نتفق على شىء أبدا فقد كان صادقا تماما عندما قال أول ما التقينا محا الموت أسباب العداوة بيننا . نما بيننا فى خلال أيام قلائل نوع من التقارب والود الحقيقى رغم استمرار الخلاف . وكأنما كنا فى عمق دفين من نفسينا لا نأخذ كل ذلك الخلاف مأخذ الجد .. نتناقش لمجرد المحافظة على الشكل غير أننا نشعر أننا شبحان من عصر مات .. نعرف أن عبد الناصر لن يبعث من جديد وأن عمال العالم لن يتحدوا . ولكننا لم نقل ذلك أبدا ، بل كنا نقول عكسه باستمرار . كنت أقول له لكى أقنع نفسى قبل أن أقنعه إن الشعب لن ينسى ما فعله من أجله عبد الناصر .. إن الناس فى قريتنا لن ينسوا أنه هو الذى بنى الوحدة الصحية فى بلدة مات نصف سكانها من الملاريا ذات يوم ، ولم تكن تعرف قبله غير طبيب الصحة الجوال الذى يأتيها مرة كل شهر .. لن ينسوا أنه بنى مدرستين ووزع على الفقراء الأرض وأنه عين أبناء هؤلاء الفقراء فى المصانع التى بناها . وكنت مثل إبراهيم أتلمس اليقين فى أشياء صغيرة . أقول له إننى منذ أيام جعلت أحد الأصدقاء يستمع الى جزء من خطبة لعبد الناصر فلمعت فى عينيه الدموع ! ..أذكره بأن الناس فى مصر بعد أن قيل عن عبد الناصر كل ماقيل خرجوا سنة ٧٧ يحملون صورته ويهتفون باسمه .. أقول له معنى هذا أن ثورته ستصحو على أيدى الناس مرة أخرى ذات يوم ، أقول أشياء كثيرة وإبراهيم يستمع إلىّ وهو يهز رأسه فى عناد ويكرر :

ولكنه حارب حلفاءه وقرب أعداءه فضيعوا كل شيء . ثم من الذى أتى بالسادات ؟
- وأحاول الرد فيبدأ من جديد الانفعال والشد والجذب .

ولكن مرة ونحن فى دوامة النقاش توقف إبراهيم فجأة وسألنى : اسمع .. بم تحاول أن تقنعنى ؟ .. أن أغير الآن رأيى وأنضمْ اليك ؟ فى هذا العمر ؟ .. الأفضل أن أنتحر !

فعلمت أنه مثلى .. يتشبث بيقينه لكى لا ينتهى عالمه . لكى لايضيع الحلم الذى دفعنا فيه ثمنا عمرا بأكمله !

ولكن قرب نهاية الأسبوع قل اهتمام ابراهيم كثيرا بهذه المناقشات. كان فى البداية يغمغم بشكوى مبهمة ..قال لى مرة إننى وإن يكن زواجى قد فشل ومررت بمحنة ، إلا أننى أسعد منه حالا لأننى عرفت على الأقل فى حياتى حبا حقيقيا كاملا. كرر لى ما قاله من قبل : إن حاجزا كان يقف بينه وبين كل امرأة عرفها وإنه لا يدرى ماهو ؟... ثم ما الفائدة أن يجد الإنسان ما ظل يبحث عنه طول عمره ولكن بعد فوات الوقت ؟ ولم أكن فى العادة أرد على أسئلته ، أعرف أننى يمكن أن أساعده بالصمت أكثر . مما أساعده بالثرثرة .

وقبل أن يسافر بيومين التقينا على العشاء فى المطعم المطل على النهر .. ولم يكن هو ابراهيم الذى أعرفه. جاء متأخرا قليلا عن الموعد وجلس فى مواجهتى شاحبا وهو يشبك يديه أمامه على المائدة وإن لم يوقف ذلك ارتجاف أصابعه ويديه. خيل إلىّ أن كل شيء فيه يرتجف وهو يهز ساقه بعصبية تحت المائدة، فقلت له برفق قدر ما استطيع : ما الذى جرى يا إبراهيم ؟

ولكنه بدلا من أن يرد سألنى : هل يمكن أن تقول لى أنت ما الذى جرى ؟ أقصد لماذا لم نعد نعرف أبدا أية فرحة حقيقية ولا حتى أى سكينة حقيقية ؟ هل تعرف كيف صدر الأمر بحرماننا من السعادة ؟

تابعت حديثى معه بالرفق نفسه وقلت : قبل أيام تحدثت أنت عن مصادفات تصنعنا. حدثتنى عن والديك وقلت لى إن ما عذبك طول حياتك هو الظلم .

فقال بشيء من الحيرة : أنا قلت ذلك ؟ وما أهميته ؟.. هل هذه هي المشكلة ؟ أظن أن الظلم عذبني مثلما عذب غيري من الناس لكن هذا لم يكن معناه أن تنتهي حياتهم. الحياة تقبل العدل وتقبل الظلم أيضا .

قلت في شيء من الحذر : ماذاً تقصد بذلك ؟

ـ ماذا أقصد ؟ .. لا أقصد شيئا .. عندما وصلت الى هنا سألتني عن شادية ومن وقتها وأنا أفكر ..ولكن ماهو الذي أردت أن أقوله؟.. نعم . لم أكن أريد أن أظلمها معي. أردتها بالفعل أن تتركني ، لم نكن نعرف ونحن في المعتقل متى سنخرج أو إن كنا سنخرج في أي وقت . فكرت أنها معتقلة مثلي .. تجلس وتنتظر ، قلت أستطيع على الأقل أن أحررها هي ..

ـ ولكن بينما كان هذا قصدك يا إبراهيم فإنك بدلا من أن تحررها قد دمرتها .

ندمت بمجرد أن قلت ذلك ، وأردت أن أعتذر لإبراهيم . ولكن رد عليّ دون انفعال بل في شرود كامل : أو لا يمكن أن تكون هي أيضا قد دمرتني ؟ أولا يمكن أن أكون قد قضيت عمري كله أبحث عن شادية التي كانت والتي ضاعت ؟

شرب كوبا كاملا من الماء في جرعات كبيرة ثم ملأه مرة أخرى وراح يتطلع الى النهر في صمت .كانت هناك بجعة وحيدة مؤرقة تنزلق ببطء فوق سطح النهر الأسود وهي تحني رقبتها البيضاء الطويلة وتدفن منقارها في صدرها ، راح إبراهيم يتابعها حتى اختفت ثم قال دون أن ينظر نحوي : أنا أحب بريجيت .

ـ أعرف .

ـ نعم ، أظن أنك تعرف ولكن مالعمل ؟

ـ لا داعي لأن أقول لك يا إبراهيم ما تعرفه أنت أيضا بالفعل . أظن أنها صغيرة وأننا أصبحنا عجوزين ..

ـ ولماذا أصبحنا عجوزين ؟

والتفت نحوي مكملا فيما يشبه الغضب : لماذا يمر الزمن دون أن يترك

فى النفس علامة ؟ .. دون أن يقول هنا تتوقف عن الحب ، وهنا تترك الأمل ، وهنا تكف عن التفكير ؟

قلت وأنا أشعر أن توتره يعدينى : ربما تأتى العلامات ولكننا نتجاهلها ..

فقال وهو يلوح بسبابته أمام وجهى بالنفى : أبدا ، أبدا .. أنا لا أجد فى داخلى هذه العلامات . أنا مازلت الطفل الذى يعذبه شقاء أمه. مازلت أعيش نفس الفرحة حين قالت شادية إنها تحبنى ، مازلت أراها تسبل عينيها وهى تقولها . أسمع الآن لسعة السوط على جسمى فى السجن وأول قنبلة فى بيروت تدوى فى أذنى . كل ذلك يحدث الآن ، هنا على شاطئ هذا .. النهر فما معنى أن تحدثنى عن الزمن ؟ أقصد .. هل تتابعنى ؟ .. أفهم الموت ، ولكن ما معنى الزمن؟ ... ما معنى أن أقول لك إنى أحبها فتحدثنى عن الزمن ؟ أية علاقة ؟

سكت وكانت أنفاسه تتلاحق بسرعة كأنه سيختنق .

قلت بعد لحظة : اسمع . هل قالت هى إنها تحبك ؟ .. سمعتها تغازلك تلك الليلة حين التقينا عند مولر فهل قالت لك بعدها إنها تحبك ؟

هز رأسه لليمين واليسار فى بطء ولكن بصورة قاطعة .

قلت : إذن على أى شىء تلومها ؟

أخذ يحك جبينه بيده ثم قال : هل قلت أنا إنى ألومها ؟ كل ما قلته إنى أحبها .

وسكت مرة أخرى قبل أن يقول : أنا عائد الآن من عندها .

تقلص شىء فى داخلى حين قال ذلك لكنى لم أنطق .

ثم بدأ يتكلم بصوت خافت ، محايد ، كأنه يحكى عن شىء حدث لشخص آخر ،يتطلع الى النهر عبر زجاج النافذة ، ويتطلع فى وجهى أحيانا ولكنى أكاد أجزم أنه لا يرانى .

قال : من البدء .. ربما فى اليوم التالى لمقابلتنا عند مولر حدثتها عن حبى.. لم أكن أستطيع أن أقاوم ، لأنى لم أكن أفكر فى أحد أو فى شىء آخر منذ

انصرفت هى فى تلك الليلة معك . حتى كلمة الحب لا تنفع فى وصف ذلك الشيء الذى حدث لى . ماهو ذلك الشيء ؟

كرت سنوات عمرى كله وتلخصت الحياة كلها في شيء واحد . إنى أريد هذه الجميلة لى ، أريدها هنا وأريدها الآن . سيصلح ذلك كل شيء ، كل الأخطاء وكل خيبات الأمل . سيرد العدل للدنيا ، كنت أمثل حين أتناقش معك أو مع غيرك. كنت أكذب . حتى عندما قلت لها إننى خجل لأنى أحدثها عن حبى وهى فى هذا الشباب وأنا فى هذه السن لم أكن صادقا. كنت أشعر أنها من حقى . إنه لايوجد فى الدنيا شيء طبيعى أكثر من أن تكون لى . وأعفتنى هى من الكذب حين قالت لماذا أنا ؟ فتيات كثيرات يتمنين أن تغازلهن فلماذا أنا ؟ أنا لا أصلح لك. لم ترد أن تقول أنت لا تصلح لى .

وابتسم إبراهيم فى حزن وهو يفرد يديه أمامى : لم تكن الحكاية هى السن ولا الشباب ولا أى شيء آخر ، يخجلنى أن أقول لك هذا ولكن كانت لى علاقات بفتيات أصغر منها ، وكانت مشكلتى هى أن أتخلص منهن ، لا أن أطاردهن . كل مافى الأمر أنها لم تحبنى . كانت تستمع إلىّ فى أدب ولكنها بعيدة وعصية . ظلت دائما بعيدة وعصية . غير أنها فى هذه الليلة كانت غريبة. تشرب كثيرا وتضحك . تقول أحتفل بعطلتى غدا . وكانت أكثر قسوة من المعتاد على الدكتور مولر . هل لاحظت مثلى أنها توجه له دائما تأنيبا خفيا ، وأن نظراته نحوها محملة بالذنب ؟ هل طاردها مثلى بحبه ؟ .. ولم لا ؟ لن ألومه ، أى فرق إن زاد هو عنى عشرين سنة أخرى أو ثلاثين ؟ .. كانت تقول له يا عمى مولر وكأنها تهينه .. تخرج كلمة عمى من فمها كما لو كانت سبة . تضحك دون سبب وتربت على يده . ظل صبورا . قال لها لا تشربى أكثر من ذلك يابريجيت . لكنها قالت له مارأيك أن نختتم القائمة يا دكتور فى النهاية ؟ ما رأيك أن نتوقف بعد بيدرو ؟.. فلم أفهم ماتقصده .. أما هو فقد أحمر وجهه فجأة وانفجر فيها بعاصفة طويلة باللغة الألمانية وكانت تقاطعه وترد عليه ولكن فى برود شديد وعندما انتهيا نظرت نحوى وقالت لا تهتم ، اعتدنا أنا والدكتور مولر على هذه المناقشات مثلما اعتدت أنت عليها مع صديقك ، لكننا صديقان أيضا ، دكتور مولر وأنا . أليس

كذلك ؟ لم يبد أنه سمعها كان يجلس فى مقعده مطأطىء الرأس وهو يستند بذراعيه على جانبى المقعد ، ثم قامت هى . كانت تترنح تقريبا .. قالت لى أما أنت فلن تسمح شهامتك بأن تتركنى هكذا .. ستوصلنى حتى البيت أليس كذلك ؟

سكت ابراهيم لحظة واعتمد ذقنه بيده . وانتظرت أن يستأنف الحديث ، لكنه غاب تماما فى شروده .

ولم أستطع أن أسيطر على لهفتى وأنا أسأله: ثم ماذا ؟ .. ماذا حدث ؟

انتبه الىّ مجفلا وقال : لم يحدث شىء .

ـ كيف ؟

همس وهو يكز على أسنانه كأنه يمنع نفسه من الصراخ : قلت لك لم يحدث شىء ! لا تسألنى كيف . كانت تمسك بيدى ونحن فى التاكسى. تقبض عليها تشنج ، ألم يكن هذا ما حلمت به ؟ بمجرد أن دخلنا شقتها أخذتها الى صدرى . قبلت وجهها وقبلت كل شبر وكل أنملة فيها وكانت هى تلهث مغمضة العينين وتحاول التخلص من ثيابها وهى بين ذراعى وتقول بهمس متوتر : نعم ، نعم ، قبلنى هكذا ، هكذا ، هيا ..

ثم خبط ابراهيم المنضدة بيده خبطة صغيرة وقال : فما الذى حدث، قل لى أنت ؟ ألم يكن هذا هو ماتمنيت ؟ أم ربما لم يكن هو هذا ماتمنيت ؟ كانت تنتفض بين يدى . كانت تصيح فى غضب وهى تسألنى ماذا حدث لكنى كنت أقف أمامها مشلولا يكاد يقتلنى الخجل واليأس وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى وتسألنى فى غضب : إذن لماذا ؟ لماذا ظللت ورائى كل هذا الوقت ؟

قلت مخافتا وبلهجة مواسية : فى مثل سننا تحدث مثل هذه الأمور .

فضحك بعصبية وقال : ولكنك لم تفهم. ما حدث لم يكن هو العجز ، أقصد لم يكن جسدى هو الذى عجز ، بل روحى.كان جسدى مستعدا تماما . مستعدا أكثر من أى وقت بقدر لهفتى إليها .. ولكن رعبا آخر كان يشلنى كأنى

لو لمستها فسنموت لتونا معا .

انتظر لحظة ربما لم أفهم .تقول إنك كنتَ تريدها وإنك لم تكن عاجزا جسديا ولكنك توقفت ؟ لماذا ؟ .. لا أفهم .

ـ ولا أنا فهمت ، ولا هي فهمت . اعتقدت أني أسخر منها ، أني أتلاعب بها فراحت تقذفني بالكتب وبالاشياء ، التي تطولها يدها ، وهي تسبني قالت إني مجنون وجبان وأشياء أخرى ، ولكنها فجأة توقفت وراحت تتطلع نحوي بدهشة. رأت دموعا غزيرة تنزل من عيني ورأت شيئا في وجهي جعلها تتوقف عن سبابها وعن ثورتها وتتقدم مني ثم تحيط رقبتي بذراعيها العاريتين وتدفن وجهي في صدرها وتقول : لا تهتم . سامحني أرجوك أن تسامحني . ربما هي غلطتي أنا .. لا أفهم ما يحدث ولكن ربما هي غلطتي . بدأت تهدهدني على صدرها وتحدثني برقة كما لو كانت تحدث طفلا . بل لعلها كانت هي أيضا تبكي . فقتلتني تلك الشفقة أكثر من صراخها الأول . وجريت . هربت . صدقني كنت أجري في الشوارع مثل شخص مطارد. لم يسبق أبدا أن حدث لي شيء كهذا من قبل، فلماذا يحدث لي مع تلك التي لم أرغب امرأة كما رغبتها ؟ .. هل تعرف أنت ؟

هززت رأسي بالنفي ولزمت الصمت .

فابتسم ابراهيم ابتسامته الحزينة وهو يحول وجهه بعيدا عني وهمس، ولكني قلت لك من قبل : هي شادية ترجع لي في آخر العمر: ترجع هذه المرة كعقاب .

وتحولت ابتسامته الى ضحكة خافتة وهو يمسك يدي الموضوعة على المائدة بكلتا يديه وينظر في وجهي طويلا قبل أن يقول : كان الله في عونك أنت ؟

فهتفت : ماذا تقصد ؟

الفصـــــل السادس

طبول لوركا لدم الشاعر

فلماذا إذن كنت حريصا على ألا يمر يوم دون أن ألقاها ؟ .. لماذا كنت أذهب إلى (مقهانا) قبل موعد حضورها بكثير مسمرا عينى على باب المدخل .. يقفز قلبى بمجرد أن أراها وهى تخطو بزيها الأزرق .. تمشى كعادتها على أطراف قدميها وابتسامتها تغمر وجهها كله وتغمر الدنيا من حولها ؟ لماذا كنت أخفى خجلى وحيرتى بالأحاديث الطويلة عن بلاد زرتها وعن أناس قابلتهم وعن أى شىء آخر غير أن أتكلم عن نفسى وعنها هى ؟ .. ولماذا كنتُ أخاف نظرتها المستقيمة وهى تفتش فى وجهى خلف كل الكلمات الفارغة عن الحقيقة ؟ .. ولماذا شحبت صورة منار وأصبح وجه بريجيت هو الذى يلازمنى فى ليالى الأرق ؟ .

ورغم ذلك فلم يكن الحب المكبوت الذى حدسه إبراهيم هو كل شىء . أردت أيضا - أنا المكشوف الجراح - أن أحميها وكأنى أكفر عن ذنب ما غير أنى لا أعرف ما هو . وكنت أدرك عجزى . أعرف أنى لا أستطيع أن أصحح ما فات ولا أن أشفى تلك الندوب التى تخفيها بسمتها الدائمة ولا أن أجعلها تبكى . ولعلها هى أيضا شعرت أن هناك شيئا آخر يربطنى بها - غير الاشتهاء والحب - جعلها تحكى لى بكل تلك البساطة منذ الليلة الأولى فى شقتها فرأيتها وعرفتها .. رأيت بريجيت الطفلة تدق بقبضتيها الصغيرتين صدر مولر .. ورأيتها فى المدرسة ، لم يتشكل جسدها الجميل بعد ، طويلة بالنسبة لسنها لكنها أميل إلى البدانة .. تلبس تلك النظارة الطبية السميكة ، قبل أن تظهر العدسات اللاصقة .. تخجل من مظهرها وتجد أنفها أطول مما ينبغى .. تنزوى فى غير ساعات الدرس فى أركان

بعيدة فى المدرسة وبيدها كتاب تقرؤه .. أحبت الكتاب الذين أحبهم أبوها .. همنجواى ولوركا وجوته .. تتجنب الأولاد بالذات .. وقتها لم تكن تحب الرجال تقول لى وهى تضحك ، هذا قبل أن أكتشف أنى لا أستطيع الاستغناء عنهم .. ومرة ، إذ تجلس فى الحديقة منكبة على كتابها يأتى واحد من التلاميذ ويلقى رسالة فى حجرها .. ولم تصدق نفسها ، كان هو بالذات يوهان ذلك الوسيم الذى تطارده نصف فتيات المدرسة وإن لم تفز به إحداهن .. هل كان هو أيضا خجولا مثلها ؟ .. هل كان ما اجتذبه هو ابتعادها ووحدتها ؟ .. تقول بريجيت : كان كلانا يحتاج إلى الآخر لكى يكتشف نفسه وجسده .. وحين اشتبكت أيدينا معا استطعنا أن نخرج للعالم الواسع من ثقب الخوف الضيق .. ثم حين نضجنا افترقنا .. مازلنا صديقين حميمين .. عرفت بعده آخرين .. كانوا لطافا ولكن أحدهم لم يترك علامة .. وفى الجامعة كان هناك الأجانب أيضا .. وكانت البنات أيامها يتهامسن عن الافريقيين .. لم يكن معنا فى الجامعة غير ستة منهم أو سبعة ولكنهم كانوا محبوبين جدا من البنات ومكروهين جدا من الطلبة .. أو هكذا، ظننت، أقصد ظننت أنهم محبوبون من البنات . لم أكتشف حين عرفت ألبرت أن المسألة بالنسبة لهن لم تكن تزيد على الفضول لمعرفة الشىء الغريب .. لذلك الرقص الجنونى بالساعات فى النادى .. لتلك الفرحة الأفريقية التى لا تنتهى والجسد يرقص .. وأهم من ذلك الفضول للتحقق من متعة ذلك الجنس الأفريقى الذى يحكى عنه الجميع ، ثم بعد التجربة يرجع كل شىء إلى أصله .. ترجع البنت إلى صديقها النمساوى ويرجع الأفريقى إلى مكانه فى الغابة.

وكان ألبرت يختلف .. لم يكن هو أقدرهم على الرقص ، بل على العكس كان أكثرهم اهتماما بالدراسة ، وكان لديه همه الخاص ، فهو لا يعرف متى سيعود إلى بلده ..

كان هاربا من النظام فى بلده ومطاردا منه . لا يعرف كيف سينتهى كابوس ذلك الحكم الجاثم هناك .. حدثنى من أول لقاءاتنا عن ذلك الطاغية الذى كان يحكم أيامها ، والذى خرب البلد . قال لى إن بلده قبل أن يحكمها (ماسياس) المجنون كان واحة سعيدة فى ذلك الركن من أفريقيا : لكل إنسان عمله الذى يكفيه

وبيته الذى يأويه .. الكل يعرف على الأقل القراءة والكتابة .. والذين يريدون أن يكملوا تعليمهم يذهبون إلى الجامعات فى الخارج .. يذهبون إلى أسبانيا فى الغالب التى كانت تستعمر البلد والتى خلفت لغتها هناك .. سكان البلد ولا يتجاوز عددهم مئات الألوف لا يكفون لاستغلال كل خيراته فيستوردون العمال من بلاد مجاورة .. من نيجيريا ومن الكاميرون ليساعدوا فى زراعة البن والكاكاو وليستخرجوا الذهب والنحاس .. ولما جاء المجنون فرَّ هؤلاء الأجانب بجلودهم ، وهرب أيضا من استطاع من أبناء البلد.. أما الآلاف الذين وضعهم فى السجون فقليل منهم منْ نجا من القتل .. وفى بلدتنا ، فى النمسا ، كان هناك مصنع للشيكولاتة يستورد الكاكاو من هناك .. هذا قبل أن تكف غينيا حتى عن تصدير الكاكاو – وتجمع فى بلدتنا قليل من المعارضين يطبعون المنشورات ويراسلون صحف أوروبا .. وكنت أخاف على ألبرت .. ظللت طوال حياتنا معا أخاف عليه بعد أن اختفى اثنان من زملائه ولم نعثر لهما على أثر .

وهكذا فإنى لم أعرف ألبرت فى المرقص ولكنى عرفته فى المكتبة .. كان يعد رسالة عن لوركا .. فى البدء كان يحتاج إلى مساعدتى لكى يكتب بالألمانية السليمة الأفكار التى فى رأسه ، وكنت أحتاج إليه ليساعدنى فى اللغة الأسبانية .. كنا نخرج من المكتبة أحيانا ونتمشى على شاطىء النهر بالساعات .. نتكلم لغة غريبة اخترعناها معا .. بعضها من الألمانية التى لا يجيدها وبعضها من الاسبانية التى أحاول أن أتعلمها وكلمات أخرى بالانجليزية أو الفرنسية .. نتحدث عن لوركا وعن شيلر .. عن كتاب افريقيين لم أسمع بهم قط ولكنه جعلنى اقرأ لهم وأحبهم .. أشيبى وسيمبينى وسوينكا وغيرهم .. هؤلاء هم الذين مازلت أذكرهم .. ومعه لم اكتشف قراءات جديدة بل عالما آخر سحرنى .. وحين كنت اقرأ عملا لا يعجبنى يستبد به الغضب .. يقول إننى مثل بقية البيض .. انظر للآخرين من فوق وإن حاولت أن أخفى ذلك .. أسأله فى حيرة ولكن كيف يريدنى أن أفهم فى هذه القصيدة تلك الطقوس والأساطير الأفريقية التى لا أعرفها ؟ .. فيرد وكيف عرفت أنا الأفريقى أساطيركم الأوروبية ، كيف عرفت أوديب وفاوست ؟ يتعلم الإنسان إن أراد أن يفهم .. ولم يكن سهلا أن أتعلم ولكنى حاولت .. ولم يكن سهلا أن أقنعه

بحبى ولكنى حاولت .. جاء الحب طبيعيا كالمشى أو الكلام .. إذ أقبض على يده فى الطريق .. إذ أقبله فى وجنته كصديق حين ألقاه .. ولكن حين تبادلنا أول قبلة حقيقية على شاطىء النهر سألنى إن كنت أنا أيضا أحب أن أجرب الافريقيين . بالكاد منعت نفسى لحظتها من أن أصفعه، غير أنى سببته بشتائم ألمانية نابية أعرف أنه لا يفهمها وتركته واقفا هناك .. قررت ألا أعود أبدا إلى هذا المغرور .. وحين مرت أيام دون أن يأتى ليصالحنى ، حين لم يعد فى الحياة شىء غير الشوق إليه ، سعيت أنا إليه فى مكانه فى المكتبة .. جلست إلى جواره صامتة وأنا أفتح أحد المراجع بيد ترتعش بينما جسدى كله يناديه .. مد نحوى يدا مترددة فقبضت على يده .. تطلع إلى بوجه مذنب وحزين لكنه لم يقل شيئا .. هكذا كان كبرياؤه ..

ومع ذلك فلم يكن ألبرت يبالى حين يسمع داخل الجامعة أو خارجها تلك الكلمات الغليظة عن الأفريقيين والسود .. يقول هؤلاء لا يعنوننى فى شىء .. أنت التى أحب وأنت التى تهميننى لأنك ستصبحين واحدة منا .. أما الآخرون ، حين أسمع شخصا يقول شيئا من عينة هؤلاء الافريقيين القرود ، أو لماذا يبقى هنا هؤلاء السود فأنا أعرف نوعية عقله ولا أضيع وقتى حتى فى التفكير فيما قال .. لست مثل الافريقيين الذين يريدون اعتراف الآخرين بهم .. فليذهب الآخرون إلى الجحيم .. أنا أريد أولا أن أعترف بنفسى .. همومى أكبر بكثير من معالجة هؤلاء المرضى .. همومى هناك بعيدا ، مع ماسياس ..

وكنت أوافقه تماما . ما أهمية الآخرين وما يقولون مادام هو ، وحده ، كل عالمى ؟ مادمت حتى لا أرى هؤلاء الآخرين وهو معى ؟ ..

ولكن ذلك لم يكن كافيا لعمى مولر . كان يحتاج أيضا إلى ألبرت لكى يواصل حربه الخاصة .. أيامها بدأ مولر حكاية حقوق الإنسان هذه بعد أن تقاعد وأغلق عيادته .. وكان ألبرت واصدقاؤه يذهبون إليه لكى يساعدهم فى معركتهم ضد ماسياس .. لا أكاد أغفر لنفسى حتى الآن أننى أنا التى قدمته إلى مولر .. ألف الدكتور فى بلدتنا الصغيرة جمعية لمكافحة العنصرية ضم إليها ألبرت وبقية الافريقيين وبعض الأجانب ممن كانوا يدرسون فى الجامعة .. وكان مولر يدعو

أصدقاءه النمساويين القلائل ويلقى خطبا وينظم مظاهرات فى الميادين العامة ضد العنصرية . ويقيم احتفالا بيوم افريقيا . ويعقد ندوة باسم «من أجل عالم واحد» إلخ الخ .. ومن وقتها تغيرت البلدة .. قبلها كانت الأمور تسير ، أما الآن فقد صار الناس إما مع جمعيته وهم على الأكثر عشرة أفراد من أهل البلدة وإما ضد جمعيته وهم بقية الناس .. حتى الذين كانوا يخفون عنصريتهم أصبحوا يتباهون أيامها بأنهم ضد وجود السود فى البلد ويظهرون العداء لكل الملونين .. كانت فرصة مثيرة لأن يحدث شىء فى حياة مدينتنا الصغيرة الراكدة .. لأن يكون هناك موضوع كبير يهتم به الناس .. موضوع يذكرهم بأيام الحمى الآرية وألمانيا فوق الجميع وهذه الأشياء ..

وفى تلك الأيام بالذات صار يلح على أنا وألبرت لكى نتزوج .. كنا نعيش معا منذ مدة وكنا سعيدين .. لكم كنا سعيدين ! .. نقضى الليل معا وإيقاع كل منا يسيره الآخر .. نقرأ فى وقت واحد .. نذاكر .. نتكلم .. نرقص .. نمارس الحب.. كل شىء فى وقته .. نداء خفى من العقل ومن الجسم ومن الكيان كله يستجيب له الآخر .. لأن ذلك النداء كان يأتينا معا فى اللحظة نفسها .. وكنا متفقين ، لا .. لا أكذب .. لم يكن هناك اتفاق ولكننا كنا متفاهمين على أننا سنذهب معا إلى بلده بعد أن يسقط ماسياس ، وهناك نتزوج ثم أعطيه وقبيلته عشرة أبناء كلهم ذكور ، غير مسموح بالبنات . يقول لى أبناء يشبهونك فأقول بل فى مثل جمالك .. يظن أنى أسخر منه ويغضب فأقبله وأنا أقول صادقة ولكنى لم أعرف مثل جمالك ! .. لم أعرف أجمل من التماع هاتين العينين حين تغرورقان بالحب وحين تشتعلان بالغضب .. لم أعرف فما مكتملا كالذى تصنعه هاتان الشفتان المكتنزتان .. يضحك ألبرت ويسألنى : هذا من شعر رامبو ؟ فأقول ، بل هو أنت ! ..

فكيف ضاع ذلك كله بعد أن تزوجنا ؟ .. كيف ضاع حين لم نعد هو وأنا وحدنا ، بل هو وأنا ومولر والعالم ؟ .

لم يرد أبى أن نتزوج . قال لى على طريقته فى الكلام ولكنك لست عاملة فى بار ! .. يمكن أن يمر هذا الزواج لو كنت عاملة فى بار .. كأنه كان يرى كل شىء. نصحنا أن ننتظر كما كان قرارنا الأول ، ننتظر إلى أن ينتهى ألبرت من الجامعة

ومن ماسياس ثم نرحل بعد ذلك معا. قال لنا ما لم نكن حتى تلك اللحظة نفهمه جيدا . قال إن الناس فى بلدنا يغمضون عيونهم عن العلاقة بيننا على أنها نزوة عابرة. حرية محكومة يسمحون بها للشباب على ألا تتجاوز الحد . أما الزواج فهو جريمة . دنس للجنس الأبيض كله لا يغفره أحد فى بلدتنا . ولم نصدق . مرة أخرى خسر أبى القضية . مرة أخرى كسب مولر وهو يلح على ألبرت : فلنلقنهم درسا ! .. فلنعلم أهل هذه البلدة البليدة أن الدنيا قد تغيرت .. يجب أن يفهموا أخيرا أن العنصرية تحط من آدميتهم .. كلام كثير راح مولر يردده على آذان ألبرت مثل ذلك الكلام الذى كان يكتبه فى منشورات جمعيته الوهمية حتى أثر عليه فى النهاية . أما أنا فبالنسبة لى لم يكن هناك فرق . قلت لأبى حتى لو قاطعتنى البلدة كلها فإن بلدتى هى ألبرت. لا يعنينى أحد غيره .

كنت صادقة ، ولكن أبى كان على حق ..

فبعد الزواج لم يعد يزورنا فى بيتنا حتى هؤلاء الذين كانوا يأتون إلينا من قبل، ولم نهتم . وفى الجامعة كان الطلاب يسيرون خلفنا.فى مجموعات لا ينطقون ولكنهم يلاحقوننا فى كل مكان بنظرات الكراهية ، ولم نهتم . وحين ذهبنا إلى المطعم الذى اعتدنا من قبل أن نأكل فيه وقف الجرسون بالباب وهو يشبك يديه على صدره وقال إن كل الموائد محجوزة . ورأينا معظم الموائد خالية ، ولكننا لم نهتم . بل ضحكنا . رحنا نذرع شوارع البلدة وهو يحيط كتفى بذراعه. نرد على صفير من يهزأون بنا بالصفير مثلهم ونحن نغنى بصوت عال، وحين يقوم من يجلسون بجوارنا فى الأتوبيس أو السينما وهم ينظرون نحونا فى استنكار وحقد كنت أرمى معطفى على مقعد وحقيبتى على مقعد آخـر وأنا أتنهد فى ارتياح .

لم نهتم .

ولكن هل حقيقة لم نهتم ؟ .. أم أنى أنا وحدى التى لم أكن أهتم ؟ .. لم ألاحظ فى الوقت المناسب أن ألبرت أصبح يكره الخروج فى الليل . لم ألاحظ أنه أصبح يقضى أياما فى غرفتنا الصغيرة دون أن يذهب إلى الجامعة . لم ألاحظ أنه بدأ يشرب أكثر من المعتاد .. فهمت معنى ذلك فيما بعد ، ولكنى أيامها كنت مشغولة بشئ أهم .. فعندما بدأ ألبرت يتغير كنت أنا أيضا أتغير ، كان فرح جديد

يغمرنى .. أقصد أنه حين بدأ يستقبل أصدقاءه الافريقيين وحدهم ويبقى معهم فى ركن من الغرفة ، وهم يشربون ويتكلمون لهجة لا أفهمها ، كنت مشغولة عنه . كان طفله الذى بدأ يتخـــلل جسمى يصرفنى عمن ســـواه . يصرفنى حتى عن المذاكرة لامتحان آخر السنة الذى اقترب ، فلم أفهـــم إلا فيما بعد معنى تلك النظرة الفاترة فى عينيه وتلك الضحكات العصبية .. كنت مستغرقة تماما فى فرحى الخاص ..

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يستمر كل شىء ، أن نسترد نفسينا بعد قليل ، أن انتبه أنا وأفهم ما الذى يحدث لألبرت ، أو أن يرجع هو إلى ازدرائه القديم لذلك الغباء وألا يبالى به . كان كل شىء ممكنا حتى ليلة السبت تلك ، حين خرجنا معا ، مثلما كنا نفعل فى القديم ، نتمشى على شاطئ النهر ..

كانت ليلة سلام . لم يزره أحد من أصدقائه ولم يشرب هو . ورجعنا كما كنا فى البداية نتحدث عن الشعر وعن لوركا . واستجاب هو لرجائى فراح يقرأ بصوت عال تلك السطور العذبة من رثاء أجناثيو سانشيز . لم أعرف فى حياتى أحدا مثل ألبرت يقرأ الشعر . ولم يهزنى شىء حتى الآن مثل طريقته وهو يردد رثاء لوركا الموجع لصديقه مصارع الثيران . لم يكن صوته يتهدج أو يتغير . كانت الأصوات تخرج عادية من حنجرة ألبرت القوية وكأنه يواصل الحديث الذى كان يتبادله معى قبل أن يقرأ الشعر . وبالتدريج تتحول تلك الأصوات الهامسة ، تلك الأصوات الحزينة ، إلى أغنية أفريقية شجية . أصوات المد فيها طويلة ممطوطة مثل آهات عميقة متصلة ، كأن الشفتين لا تنطبقان أبدا ، لكى تظل تلك اللوعة تتدفق باستمرار من ذلك الصدر الواسع ومن شلال تلك الحنجرة الهادر .. وشيئا فشيئا تختفى أشجار السرو المنسقة على شاطىء النهر النمساوى وتتلاشى البيوت الحجرية الصلدة التى تصطف على جانبيه لكى تتشكل غابة بكر ، غابة حارة تحتضن أكواخا متناثرة تحت قمر فضى كبير .. فجأة يخلع لوركا قبعته وثيابه الاسبانية لكى يقف عاريا أسود ، لكى يقرع الطبل هناك فى تلك الغابة وهو يمط أيضا آهاته الملتاعة على اجناثيو .. فها هى الحمامة تصارع فهدا ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وجذع الرجل مع قرن وحيد ، فى الساعة الخامسة عصرا ..

والثور وحده يغنى زهوا ، فى الساعة الخامسة عصرا.. والموت يلقى بيضه فى الجروح ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وتابوت على عجلات هو سريره ، فى الساعة الخامسة عصرا .. والجروح تلتهب كشموس ، فى الساعة الخامسة عصرا.. وكل الساعات تشير إلى الخامسة عصـرا .. والظل هو ظل السـاعة الخامسة عصرا ..

الخامسة عصرا ...

الخامسة عصرا ...

وأنا فى قلب الغابة ، مع الطبل ، مع لوركا مع اجناثيو ، مع ألبرت ، وقد توقف العالم فى الخامسة عصرا .. كان ألبرت يضع يده على كتفى ، يحملنى إنشاده إلى ذلك القرع الحزين البعيد ، وقد غبنا معا فى تلك النشوة لأننا بعد لحظة واحدة - لحظة لا أكثر ! - سنكتشف ذلك السر العصى ، وسنعرف لماذا أصبح حزنه على إجناثيو هو كل الحزن فى العالم ولماذا تتولد من حزن هذه الكلمات تلك الموسيقى التى تعلو بقلوبنا فوق الأرض وفوق الزمن .

لكنْ تلك اللحظة لم تأت أبدا !!

لم نكن قد انتبهنا إلى الضجة التى تأتى من خلفنا ، بل ولم نفهمها فى أول الأمر . ألبرت هو الذى كف عن الإنشاد حين أصبحت تلك الضجة خلفنا مباشرة على شاطىء النهر المهجور ...

كانوا سبعة أو ثمانية من الشبان ، مخمورين تماما ، خرجوا لتوهم من أحد (البارات) التى تتأخر ليلة السبت ، واستطعت أن أميز بينهم وجهين لطالبين معنا فى الجامعة أما الباقون فلم أعرفهم . كانوا يغنون إحدى الأغنيات التى كانت شائعة فى تلك الأيام ويحورون كلماتها لكى يقولوا : هى أكثر من امرأة .. أكثر من امرأة .. هى كثرة من العاهرات فى وقت واحد .. ثم يضحكون ويكررون ذلك بصوت يزداد ارتفاعا فى كل مرة .. وشعرت بجسد ألبرت وقد تصلب كله ، فضغطت على ذراعه وأنا أهمس ، هيا بنا ، هم مخمورون ، فلنسرع من هنا .. وكنت اجذبه بعيدا لكنهم تقدموا منا وصنعوا دائرة واسعة حولنا لكى لا نهرب

وراحوا يرقصون مباعدين بين سيقانهم .. يرفعون أرجلهم عن الأرض إلى أقصى ما تستطيع أجسادهم المخمورة ، مقلدين ما رأوه فى الأفلام عن الهنود الحمر أو عن الأفريقيين في الغابات .. وحاول ألبرت أن يصرفهم فصفق وقال برافو .. غدا نكمل هذا الفيلم يا طرزان .. وأزاح واحدا منهم لكى نخرج من الدائرة لكنهم لم يتحركوا .. بل تقدم أحدهم منا وهو يترنح ، ثم فك بنطلونه وأنزله عن وسطه وقال وهو يتحسس سرواله : أنظرى ! .. هل الأفريقى أفضل من هذا ؟ .. لماذا تذهبين بعيدا ؟ .. بضاعة النمسا أفضل ! .. دعنا نقارن ياكنج كونج .. ومد يده إلى بنطلون ألبرت يحاول أن يفكه وقد سقط بنطلونه هو عند قدميه .. ولم يكن فى سكره يحتاج إلى أكثر من دفعة واحدة من ألبرت لكى يسقط فى الأرض متعثرا فى ثيابه المحلولة .. ولم يكونوا هم أيضا بحاجة الى أكثر من ذلك لكى يهجموا على ألبرت بقبضاتهم وركلاتهم وسبابهم البذىء .. واستطاع ألبرت أن ينتزع حزامه من وسطه وراح يدور حول نفسه ملوحا بالحزام لكى يبعدهم عنه وهو يصرخ بى .. اهربى أنت - اطلبى الشرطة . أو اطلبى النجدة ..

ولكن فى لحظتها بالذات وأنا أحاول أن أخرج من الدائرة التى تفككت حلقتها قليلا دفعنى أحدهم فى ظهرى دفعة قوية فسقطت على الأرض وأنا أصرخ :

ألبرت .. ألبرت .. قتلوا طفلى !

ولما سمعوا ذلك .. ولما رأونى ممددة هناك أتلوى ويدى بين فخذى ، صمتوا لحظة ثم لاذوا جميعا بالهرب ..

ولكنى كنت بالفعل قد فقدت طفلى .

لم أفقد طفلى وحده ولكنى فقدت ألبرت ...

لم أفقد ألبرت وحده ولكنى فقدت نفسى ..

كانت تلك هى ساعتى الخامسة عصرا .

بعد الأيام الأولى فى المستشفى ، وبعد تحقيقات الشرطة رجعت إلى البيت . كان مولر مشغولا بتنظيم مظاهرة وتجهيز لافتات كتب عليها «القتلة» .. ورسم أيادى تقطر بالدماء وأشياء من هذا النوع . وصممت أنا ألا أخرج فى هذه

المظاهرة ، ولكنه أخذ معه ألبرت . قال لى ألبرت إنها كانت أكبر من كل مظاهرات مولر السابقة وإن الناس كانوا يتابعونها على الأرصفة صامتين . ولم يرحنى هذا أبدا ، بل شعرت بالغضب . كأنما كان لابد أن أفقد طفلى لكى يشعر هؤلاء بالذنب. وصرخت فى ألبرت : كفى! .. قل لمولر أن يكف عن هذا العبث . قل له أن يخرس !.. قل له أن يموت ! ..

وكانت تلك من المرات القليلة التى قلت فيها أى شىء ، أيامها كنت معظم الوقت فى الفراش . أرقد صامتة مفتوحة العينين وألبرت هناك على مقعده فى الركن ، يشرب ويتظاهر أنه يقرأ . أحيانا كان النهار بطوله يمر دون أن نتبادل كلمة ودون أن نأكل ودون أن نتذكر حتى أننا لم نأكل . واعتاد أبى وقتها أن يأتى كل يوم تقريبا . يحمل لنا الطعام وينظف بنفسه القذارة التى تتراكم فى غرفتنا . يغسل الأطباق والأكواب ويصرخ فينا – لماذا نترك الغرفة دون تهوية ؟ .. وكنا نتركه يفعل ما يشاء ، مع عبارات اعتذار وغمغمات : لا داعى لذلك . لا تتعب نفسك . كنا على وشك أن ننظف البيت ، إلخ .. الخ . ولم يكن يبالى بما نقول . هو وحده الذى ظل واقفا على قدميه ، هو ، أبى الذى كان قد قرر أيامها أن يتقاعد ، رجع من جديد شابا غاضبا ومحاربا . صمم أن يجد هؤلاء الشبان وأن يأخذهم للمحكمة . اشتغل مخبرا ومحققا ومحاميا . ولما طلب منى ذات يوم أن أذهب معه لكى أتعرف فى الجامعة على واحد من هؤلاء الشبان كنت قد أعطيت أوصافه وظن أنه توصل إليه . قلت إننى لن أخرج من البيت وطلبت منه أن يهدأ . قلت له أن يترك هذا العمل للشرطة وسألته إن كان هذا سيعيد طفلى . فصفعنى أبى على وجهى وحملنى من الفراش وأرغمنى على أن ألبس ثيابى ودفعنى دفعا ليخرجنى من البيت . صمم هذه المرة أن يكسب القضية ولأول مرة كسبها بالفعل . استطاع أن يعثر عليهم وأن يقدمهم جميعا للمحكمة ، كانت مرافعته قوية وحجته دامغة فوضعوا ثلاثة منهم فى السجن . وهكذا انتهى الأمر وارتاح ضمير كل إنسان . صمم أبى أيضا فى هذه الأيام أن نرجع إلى الدراسة وأن ندخل الامتحان . كان يأتى بنفسه فى الليل بعد أن ينتهى من العمل فى مكتبه لكى يتأكد من أننا نفتح الكتب على الأقل وأننا نقرأ . ولا أدرى كيف نجحت أنا فى الامتحانات ولكن ألبرت رسب .

وشعرت بالخجل من نفسى تقريبا لأنى نجحت شعرت بالخجل لأنه كان لدى أبى الذى يقف إلى جانبى بينما كان ألبرت وحيدا دون أسرة ودون أقارب فى هذه المدينة التى تكرهه . وكنت قد بدأت أسترد نفسى . غلط . لم أسترد نفسى أبدا . مع تلك الدماء التى خرجت من بين فخذى فى ليلة السبت تلك خرج شىء لم يعد أبدا . ظهرت بريجيت أخرى . لا أعرف بالضبط ما الذى ضاع ، ربما كان أول ما لاحظته هو أن الشعر لم يعد يهزنى . لم أعد أطلب من ألبرت أن يقرأ لى كما كنت أفعل دائما ولم يكن هو وقتها يقرأ شعرا أو غيره فقط يجلس فى البيت ويشرب . وحاولت كل ما كنت أستطيعه . ذهبت الى أصدقائه الأفريقين وطالبتهم أن يزوروه كثيرا وأن يشجعوه على الخروج من البيت ، أن يطلبوا منه كتابة المقالات ضد ماسياس كما اعتاد أن يفعل من قبل بل ذهبت إلى مولر ورجوته أن يستدرجه مرة أخرى إلى جمعيته الأفريقية وإلى حقوق الإنسان فربما يرجع ألبرت الى طبيعته . وكان مولر يأتى بالفعل ويتكلم مع ألبرت الذى يظل صامتا أو يضحك بلا معنى أو يناقش مولر بجدية مزيفة ، ولكنه ذات مرة قال فيما يشبه الهمس : اسمع .. إن كنت لم أستطع أن أحمى طفلى فكيف تريدنى أن أدافع عن الغرباء ؟ فقال مولر ستحمى أطفال الآخرين وستحمى طفلك المقبل . لن نغير العالم فى ليلة واحدة ولكن يجب أن نعمل .. إن كانوا قد أهانوك فلماذا تستسلم ؟ ويظل مولر كلما جاء يكرر هذه الخطب الرنانة فيقوم ألبرت ويخرج معه وأشعر أنه يصحبه لمجرد أن يسكته عن الكلام . أما ذلك الطفل الآخر الذى تحدث عنه مولر فلم يأت أبدا ، ولعلنا كنا ، علانا ، نحرص على ألا يأتى .

ثم تشبث ألبرت بعناده فلم يعد يذهب الى مولر أو إلى أى مكان . ولم يعد الأصدقاء الافريقيون يظهرون أيضا . قلت لنفسى لعلهم سئموا منه ، فكل ما كان يفعله الآن هو أن يشرب حتى يسكر ، وكنت أنا أشتغل فى الصيف لكى نعيش ولكى أوفر مصاريف الدراسة للعام الجديد .. أما ألبرت فلم يكن يعمل . كان يعيش ويسدد مصاريف دراسته من مبلغ شهرى ترسله له أسرته التى فرت إلى اسبانيا بعد حكم ماسياس واستطاعت أن تهرب معها بعض اموالها . وعندما عرفته كان حريصا على ألا يتجاوز ما نصرفه معا هذا المبلغ . لم يقبل أن أنفق

شيئا فى البيت أو أن أطلب مساعدة من أبى . أما الآن فبالكاد أصبح هذا المبلغ يكفيه أسبوعا لشرب الليل والنهار ولم يعد يخجل أن يطلب منى نقودا ، وحين كنت أرفض إعطاءه شيئا لعله يكف عن الشــرب ويستجمع نفســه ، كان يبكى ويتوسل ويعدنى أن هذه هى المرة الأخيرة وأنه منذ الغد سيبحث هو أيضا عن عمل . ولكن هذا لم يحدث أبدا . على العكس بدأت ألاحظ نقودا تختفى من حقيبة يدى وحين أسأله عن النقود التى كانت فى الحقيبة يظل ينكر ويقسم ويتظاهر بالغضب .

ومرة حين عدت من العمل فى المساء سمعت وأنا على السلم أصواتا كثيرة حادة فى غرفتنا . دخلت مفزوعة فوجدت اصدقاءه الافريقيين جميعا هناك . كانوا يحيطون به وهو يجلس على مقعده مخمــوراً ورأسه يهبط بين كتفيه كعادته فى تلك الأيام .. كانوا يشتمونه ولم يبالوا بى عندما دخلت .. بالعكس أمسكه أحدهم من ياقه قميصه ورفعه قليلا وهو يقــول : انطق ! ثم عاد يرميه مكانه ولكن ألبرت لم ينطق.

هتفت وأنا أحاول الوصول إلى زوجى : ماذا حدث ؟ .. قولوا لى ما الذى حدث؟

فرد أحدهم وهو ينتفض غضبا : هذا الكلب .. هذا الخائن يكتب إلى ماسياس! .. حدث أم لم يحدث ؟ .

تطلعت نحوه مثلما كانوا يتطلعون جميعا .. كنا ننظر إليه وظل هو صامتا لفترة وهو ينقل بصره بيننا ثم ثبت نظرته على أنا طويلا وقال ببطء وهدوء ، بصوت ألبرت الحقيقى القديم : أنا لم أخن أحدا ..

وعاد يجيل بينهم عينيه الواسعتين المحمرتين لينظر اليهم واحدا واحدا وعلى شفتيه ابتسامة غريبة قبل أن ينفجر بالضحك وهو يقول : لأنكم سعداء هنا حقا؟.. ردوا على .. لأنكم سعداء هنا لا تريدون العودة إلى هناك ؟... ويصق جانبا حين قال ذلك فصفعه أحدهم على وجهه . وقال آخر وهو يصوب نحوى عينين محتقنتين أيضا بالغضب : هذه المرأة الاوروبية هى السبب . ولكنهم جذبوه بعيدا وخرجوا

وهم يغمغمون لى باعتذارات . غير أنى أنا وحدى كنت أعرف ، كنت متأكدة ، أنه على حق .

نعم ، هذه المرأة الاوروبية هى السبب .

★★★

عشت طويلا مع كلمات بريجيت التى تدفقت فى تلك الليلة فى غرفتها اليابانية. عندما انتهت هى كان المساء قد انقضى وكان الليل قد تقدم ولكنها ظلت تجلس على الأرض ، فى الغرفة المعتمة ، وقد انسدل شعرها يكاد يخفى وجهها وتهدل كتفاها ، وقالت لى دون أن ترفع رأسها :

- كيف بدأ كل هذا الكلام على أية حال ؟ .. لماذا وقد رضيت بسنوات من الصمت أشعر الآن وكأنى مرغمة أن أحكيه ؟ .. ومع ذلك فأنا لم اتخفف من أي حمل ، بل أشعر بكل الوجع القديم يرجع من جديد . فلماذا كان يجب الآن أن أحكى ؟ ..

ثم رفعت رأسها ببطء وقالت : سامحنى ، ولكن هل يمكن الآن أن تتركنى وحدى ؟

تركتها ، وتصرفت بعدها بالفعل مثل ذلك الجار العابر فى القطار الذى يحكى له الإنسان أسراره . كنت ألقاها فى أمسيات عديدة مع إبراهيم ومولر قبل أن يسافر كلاهما . فلا أشير من قريب أو بعيد إلى ليلة المصارحة تلك ، ولا تشير هى إليها . أيامها ، كنا ، كلينا ، مشغولين بإبراهيم . لم أرها معه يوم سفره . ولكننا فى المطار تعانقنا عناقا حارا ، إبراهيم وأنا ، وترقرقت دموع فى عيوننا . لم تكن العداوة قد انمحت فحسب ، ولكننا ، بعد أن كشف كل منا للآخر جراحه ، وتعرف على ندوبه ، نما الود العميق بيننا فجأة وكأننا لم نعرف العداء فى أى يوم .

ومن المطار ذهبت إلى المقهى مباشرة وهناك وجدتها ، فهل كانت مصادفة أم أنها كانت تعرف عاداتى وكانت تنتظرنى هناك ؟ .

لم أسألها عن ذلك ، ولكننا صرنا بعد ذلك نلتقى كل يوم فى الظهيرة ، لم أتخلف يوما ولا هى تخلفت . حتى فى أيام العطلات ظللنا نلتقى . لا نضرب موعدا

ولا نتفق على شيء ولكن بعد أن أوصلها إلى مكتبها ، تقول قبل أن تنزل من السيارة الى اللقاء . ونعلم دون كلام أننا سنكون فى المقهى غدا فى الموعد نفسه .

وفى تلك الأيام الأولى كنت أنا الذى أحكى لها . لم أكن أعرف أيضا لماذا أشعر بالرغبة القاهرة فى أن أتكلم عن نفسى وعن همومى .. فى لقائنا الأول قالت هى هذا المساء أريد أن أتكلم ، وفى أوقات الظهيرة تلك أيضا كانت تستبد بى أنا الرغبة فى أن أحكى ، فى البدء قلت لها حكايتى مع منار ، ما استطعت أن أفهمه من تلك الحكاية على الأقل . ما عجزت عن أن أقوله لإبراهيم أو لأى إنسان ، وما كان يطاردنى فى الصحو والمنام . حكيته بالبساطة التى حكت بها هى قصتها ، حكيته دفعة واحدة ، دون تردد ، ولم أشعر أيضا أنى تخففت من حمل ، ولكن كان على أن أحكيه .

ولكى أطمئن نفسى أن هذا الذى يحدث بيننا ليس هو الحب كنت أردد فى داخلى أشياء كثيرة : إن ما يجمعنا هو حبنا للشعر فى وقت لم يعد فيه للشعر مكان .. إننى فى وحدتى البعيدة اتخذها بديلا عن أولادى .. إننى أشفق عليها بسبب ما جرى لها .. إننا برغم فارق العمر صديقان جمعتهما الغربة ، فلم لا ؟ .. ولكن شيئا قلقا فى داخلى كان يسخر من هذا كله .

وفى اعترافاتنا اليومية لم يعد هناك شيء يخفيه أحدنا عن الآخر . سألتها مرة عن ألبرت ، فقالت إنها لم تعد تتابع أخباره بعد الطلاق .. كان هو الذى هجرها وعاد إلى أفريقيا بعد أن قاطعه كل زملائه وبعد أن تكرر رسوبه فى الجامعة . قالت لى بلا اكتراث ، سمعت أنه أصبح سفيرا لبلده فى مكان ما ، وربما يكون الآن وزيرا . لا أعرف ولا أريد أن أعرف . ثم قالت بطريقة توحى أنها لا تريد متابعة هذا الحديث : العالم أنهى ما بين ألبرت وبينى .

ومع ذلك فقد كان هناك شيء واحد لم تكلمنى عنه أبدا ، ولعلها كانت واثقة أنى أعرفه وإن لم أقل شيئا . لم ألمح أبدا من قريب أو بعيد إلى ما جرى بينها وبين إبراهيم ، ولا هى قالت شيئا .

ثم بالتدريج لم نعد نتكلم فى جلساتنا عن أمورنا الشخصية . ولاحظت بعد مدة أننى وحدى الذى أتكلم ، وأنها تجلس فى معظم الوقت صامتة ، تنصت

باهتمام ، وكأن كل تلك الحكايات التى لا معنى لها عن أسفارى وعن طفولتى وعن أصدقائى أشياء ينبغى ألا تفوتها منها كلمة . بين الحين والآخر تطلب أن أقرأ لها شعرا باللغة العربية ، وتظل تنصت وهى تصوب عينيها نحوى . ترفع يديها أمام وجهى إن حاولت أن أترجم لها قصيدة أو مجرد بيت من الشعر . تقول ما الأهمية ؟ .. ألا تفهم أنى كلما جهلت الألفاظ أخترقنى الشعر ؟ .. وأحيانا كانت تفاجئنى . فمرة حين فرغت من قصيدة لصلاح عبد الصبور قالت لى ما أشد حزن هذا الإيقاع ! .. مثل إيقاع دموع تنزل مترددة من العين .. وفى مرة أخرى ابتسمت وأنا أقرأ لها من معلقة امرئ القيس وقالت : ها هى قافلة مسالمة تشق الصحراء ببطء وفجأة تنقض عليها خيول الأعداء من كل مكان ، ألا تسمع هذا الصخب ؟

ذلك ما كانت تقول قبل أن نكف حتى عن الشعر . قبل أن يتدفق شلال الثرثرة اليومية وهى تنصت وأنا أخاف أن أصمت . أظن أيضا أنى كنت أخاف أن تسأمنى فظللت أسليها كطفلة بالحكايات ، ولم أكن أعرف قبلها أنى أستطيع أن أتكلم كل هذا الوقت أو أن عندى مثل هذا الرصيد من الذكريات . وكانت تبدو لى مستمتعة وهى تنصت . أم تراها كانت تأمل طول الوقت أن أكف عن تلك الثرثرة وأن أصرخ بالحقيقة ؟ وكيف كنت أجرؤ ؟ .. كيف وعمرها نصف عمرى ؟ .. وكيف بعد كل ما عرفت عن حياتها ؟ .. فيم أزيد أنا على ألبرت ؟ .. ألست مثله ملونا وأجنبيا وطريدا من بلدى ؟ .. لا مكان لى هنا ولا هناك مثلما لم يكن له مكان . وقبل كل شىء فأين لى شبابه ؟ .. بل فيم أزيد أنا عن مولر ؟ .. ألا أطنطن مثله بالكلمات ؟ .. أحيانا كنت أنتبه . هى التى كانت تنبهنى فى واقع الأمر . فحين كنت أنزلق إلى الحديث عن السياسة أو عما يحدث فى بلدى كانت تقاطعنى . تمسك رأسها بين يديها وتقول بلهجة اعتذار : فلنتكلم عن شىء آخر أرجوك . تجربة واحدة تكفينى .

لكن كل شىء تغير بعدما حدث فى لبنان .



كنت أجلس فى المقهى فى ذلك الصباح من يونيو ، منكبا على الجرائد التى اشتريتها .. الجرائد العربية والانجليزية والفرنسية محاولا أن أستخرج شيئا من بين السطور . أن أتنبأ بالتغيير الذى سيحدث أخيرا فى لبنان وفى مصر وفى كل مكان من الوطن . كنت منفعلا ومتحمسا عندما دخلت بريجيت فلم أنتبه إلا وهى تقف أمامى . حييتها بسرعة وأنا أجمع الصحف لأخلى المنضدة . وبمجرد أن جلست بدأت أحدثها عما قرأته وعما سمعته فى الإذاعات . قلت لها : اسرائيل فرضت الحرب الشاملة على العرب بحجة غريبة هى أن شخصا مجهولا أطلق النار على سفيرها فى لندن . ولكن بريجيت ظلت تستمع إلىّ دون انفعال وأخيرا وبينما كنت مندفعا فى رواية التفاصيل قاطعتنى بوجه مكفهر : كفى ! .. ألم أقل لك من قبل ؟ .. أنا لا أقرأ صحفا وليس فى بيتى راديو ولا تليفزيون . أنا لا أريد أن أعرف شيئا عن هذا العالم المجنون الذى لا أفهمه . ألم تكن أنت الذى قلت لى فى أول لقاء بيننا إن هذه الحياة كذبة ؟

فقلت لها بغضب وأنا أخبط على الصحف المكومة أمامى : ولكن هذا الدم حقيقى جداً!!

فردت بهدوء : لم نكن نحن الذين أرقنا هذا الدم ، ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفه . فقمت وقد استبد بى الحنق ، وأنا أقول : تلك هى البلادة بعينها ! ...

وكانت أول مرة أتشاجر معها . قلت وأنا أجمع صحفى المكومة على المنضدة إنها تجعل من حكايتها الشخصية عذرا لأنانيتها ولكى تعيش دون مبالاة بشىء مثلها مثل الآخرين . قلت لها إنها كان يجب على الأقل أن تقدر ما تعنيه لى تلك الحرب حتى وإن لم تعن شيئا لها .

وبينما أنصرف عنها أمسكت بيدى وقالت بلهجة ضارعة : ليكن . أنا مثلما تقول وأسوأ منه . ولكن لا تذهب . فلنظل صديقين كما نحن . لا أريد أن أفقدك أنت أيضا ! ..

غير أنى جذبت يدى منها فى عنف وقاطعتها وأنا أعيش تلك الأيام من الحمى . أقطع قصاصات من الصحف بكل اللغات وأشاهد كل النشرات فى التليفزيون ،

وأكتب فى كل يوم رسالة مطولة إلى صحيفتى فى القاهرة عن ردود الفعل فى أوروبا على تلك المجزرة – أترجم التعليقات الغاضبة وأصف المظاهرات التى تنظمها الأحزاب اليسارية وأنتظر . أدير مؤشر الراديو من المغرب إلى القاهرة إلى بغداد وأنا أنتظر فى كل لحظة أن يحدث شىء . أقول لنفسى لابد أن شيئا سيحدث . شيئا غير تلك الصور التى يجرح بها التليفزيون والصحف عينى كل دقيقة . أنتظر شيئا آخر يغير ذلك الهوان ...

ولكن لا شىء .

لا شىء غير الدبابات والقنابل تطير وتدك ، والطائرات تقصف وجنود إسرائيل الأصحاء يبتسمون فى وجهى على الشاشة وهم يرفعون رشاشاتهم بعلامات النصر وفى المخيمات يجرى الأطفال العرايا والأمهات بالشباشب البلاستيك وهن يلطمن الوجوه وسط أكواخ انزلقت أسقفها على جدرانها لتصنع أكواما مهوشة من التراب والطوب وأسياخ الحديد الملتوية وسط دخان أسود ودخان أبيض . ومصر تعرب عن الأسف ولجنة الاقتصاد تعقد اجتماعا لبحث الخطة الخمسية . وصور تسقط وصيدا تسقط ومخيم عين الحلوة يباد ومخيم الرشيدية ومخيم المية مية كلها تسقط وتحترق ، والسعودية تعرب عن الأسف وتعلن ثبوت رؤية الهلال وتبعث رسائل للملوك والرؤساء . والجزائر تستنكر وتعلن تيسيرات جديدة للمستثمرين الأجانب . والطائرات فوق بيروت – ٢٠٠ قتيل و ٤٠٠ جريح و ٩٠ قتيلا و ١٨٠ جريحا .. أرقام تنقلها الأخبار لا غير .. وشارع بأكمله يحترق وتفقد كل عمائره واجهاتها بعد ضربه بالقنابل الفراغية وتبدو فى الصور بقايا الحياة فى الغرف العارية – مناضد مقلوبة ولعب أطفال ملوثة بالدم وصور فوتوغرافية وتماثيل صغيرة للعذراء مهشمة على الأرض وسط حرائق وجثث ملقاة على ظهرها وأخرى مكورة على جنبها ، وامرأة عجوز مشلولة فى ملجأ تجلس على مقعد وتحاول أن تدفعه للأمام أو للخلف وسط عنبر فقد جدرانه ولكن الأحجار المتناثرة فى الأرض تمنعها من الحركة فى أى اتجاه فترفع الشال الأبيض عن رأسها وتبكى ..

تطاردنى صورة تلك المرأة فى الليل وأنا أصارع النوم وصورة رجل يجرى مذعورا فى الشارع وسط دوى المدافع وهو يحمل ذراعاً آدمية مبتورة يلفها فى صحيفة تقطر دما . لماذا يحمل هذه الذراع ؟ يطاردنى جنود إسرائيل وهم يسوقون بكعوب البنادق شبابا معصوبى الأعين وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. ولكنى أقول لنفسى غدا فى الصباح سيتغير كل شىء . لا يمكن أن يستمر هذا . إن كانت إسرائيل قد فعلت هذا لأن سفيرا ، فردا، قد أصيب، فلابد أن بركانا من الغضب سينفجر عندنا ونحن نرى ونسمع عن مئات يموتون كل يوم .. لا يمكن أن تكون النخوة قد ضاعت إلى الأبد . هى دماء على كل حال تلك التى تجرى فى عروقنا وليست جليدا وسينفجر الغضب قبل الصباح !

ولكن فى الصباح وقف إطلاق النار الثانى .. الثالث ... الخامس .. والمبعوث الأمريكى يأتى .. المبعوث الأمريكى يذهب .. ووقف إطلاق النار السابع .. وعربات إسعاف تجرى فى الشوارع المحترقة وتطلق صفاراتها العالية .. وإسرائيل تقطع عن بيروت الماء والكهرباء .. وطفلة حافية القدمين مهوشة الشعر تملأ بكوز صفيحة من مياه المجارى ..

وفى غير بيروت لا شىء يحدث ..

وتقول لى الممرضة النرويجية كل ما رأيته فى التليفزيون وكل ما قرأته فى الصحف شىء آخر غير الحقيقة .

★★★

ذات صباح ، ولم أكن قد نمت جيدا مثلما كان حالى منذ بدأت الحرب ، اتصل بى برنار وقال : تعال فورا . هناك شىء مهم عن لبنان يجب أن تسمعه ..

وذهبت إلى مقهاه . كان ينتظرنى ومعه سيدة شقراء تميل إلى البدانة ، فى حوالى الأربعين من العمر ، قدمها إلى قائلا : ها هى ماريان إريكسون . ممرضة من النرويج تركت لبنان بالأمس وتقضى هنا يوما فى طريقها إلى بلدها .

فقالت بابتسامة صغيرة : بل طردت بالأمس من لبنان . هذا شىء يختلف ..

تأملت وجهها الشاحب وعينيها المحتقنتين وهى تسند ظهرها الى المقعد فى استرخاء وقد تدلت يداها إلى جوارها وتبذل مجهودا مع ذلك لكى يبدو عليها الانتباه والتيقظ ، وقلت لنفسى هذه إنسانة بحاجة إلى النوم لا إلى الكلام ..

والتفتت هى نحو برنار وقالت بتلك الابتسامة المتعبة : حتى الطرد كان مشكلة، هل حكيت لك كيف طردونا ؟ .. كانوا يحتجزوننا فى المستشفى بعد إغلاقه وظل سفير النرويج خمسة أيام يحاول ترحيلنا دون جدوى . كانوا يجدون عذرا فى كل مرة لإبقائنا فى الحجز ، مرة لأنهم لا يعملون فى يوم السبت ومرة أخرى لأن الضابط المسئول عن إعطاء التصاريح فى إجازة ميدان . وأخبرنى السفير أن قائدهم قال له : لماذا العجلة على السفر ؟ .. البنات يستمتعن ...

وضحكت ضحكة خافتة ثم توقفت عن الكلام .

قال برنار الذى كان يبدو عليه الوجوم على غير عادته : سامحينا ..

فنظرت إليه بدهشة وقالت : ولكن ماذا فعلت أنت لكى أسامحك ؟ .. ثم شبكت يديها على المنضدة وقالت لى : هل ستنشر ما سأقوله لك ؟ برنار يقول إنه سيحاول ولكنه لا يعد بشىء ، فهل أنت متأكد أنك ستنشر ؟

تجنبت عينيها المصوبتين نحوى وقلت : أنا أيضا لست متأكدا ولكنى سأحاول..

سألتنى فى أى صحيفة تعمل ؟ فقلت صحيفة فى مصر .

هزت رأسها وقالت أفهم : (ثم سكتت لحظة) أو فى الواقع لا أفهم ، ولكن من أين تريد أن أبدأ ؟

قلت : أن أتعرف عليك أولا .

– معك حق ، أنا أعمل .. أقصد كنت أعمل فى مخيم عين الحلوة فى الجنوب مع ممرضات أجنبيات أخريات ، كنا نساعد الأطباء والممرضين الفلسطينيين هناك . هل تعرف هذا المخيم ؟

– لا ، زرت بيروت من حوالى عشرين عاما ولكنى لم أذهب للجنوب ..

- حتى لو كنت قد زرته فى ذلك الوقت فلا أظن أنك كنت ستعرفه الآن . أقصد قبل أن تدمره الحرب . قيل لى إن المخيم تغير كثيرا خلال عشرين عاما . لم يعد مجرد مخيم . عندما رأيته أول مرة منذ حوالى سنتين كان يشبه قرية أو ضاحية صغيرة من ضواحى صيدا ، كان يضم حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ بيت، مزدحمة على آخرها بسكانها من الفلسطينيين ومن اللبنانيين الذين لا مكان لهم خارج المخيم.

سكتت مرة أخرى .. فتدخل برنار قائلا : اسمعى يا ماريان . لا نريد أن نثقل عليك . أنا دونت أهم النقاط التى ذكرتها لى ويمكن أن أعطيها لزميلى .. فقاطعته ماريان قائلة : لا . بالعكس . يهمنى أيضا أن يسمع صديقك ما حدث .. فأخرجت جهاز التسجيل ووضعته أمامها . ولم أقل شيئا كثيرا بعد ذلك . كانت هى التى تنبهنى إلى أن الشريط قد انتهى وتطلب منى أن أغيره ..

قالت : سأحكى فقط ما شاهدته بعينى . عندما ظهرت الطائرات وبدأت الغارة صباح ٧ يونيو بدأنا نعد المخبأ فى الطابق الأرضى من العيادة .. نسيت أن أقول لك إن عيادتنا لم تكن مستشفى حرب . كل عملنا فى الأصل هو أن نعالج الأطفال المعوقين جسميا وعقليا وأن نقدم أيضا إسعافات أولية للحالات العادية قبل أن نحولها إلى المستشفيات . وكان معنا زميلتان من النرويج لم تتعودا على صوت القنابل وكنت أنا أيضا خائفة رغم أنى عشت هذه الغارات من قبل . سمعنا بما حدث فى مخيم الرشيدية قبل يومين فنزلنا إلى المخبأ . أقصد إلى الطابق السفلى من العيادة وجهزنا بسرعة أماكن للأطفال ونقلناهم إلى هناك ، وكنت أعرف أن هذه الغارات تنتهى بعد نصف ساعة على الأكثر ، وبعد الغارة كان هناك كالعادة بعض القتلى وبعض الجرحى وبعض البيوت التى دمرت وكثير من الشظايا . ووجدنا أيضا إلى جانب الشظايا منشورات مكتوبة باللغة العربية ألقتها الطائرات تطلب من السكان إخلاء المخيم لأن القصف سيبدأ بعد فترة ..

ولكنه لم يبدأ بعد فترة ، بل بدأ على الفور وقبل أن نتمكن حتى من تضميد جراح ضحايا الغارة الأولى . أخذ الممرضون يجرون بمحفاتهم التى تحمل الحالات الخطيرة إلى عربات الإسعاف ، وكانت كل واحدة منا تحمل طفلا أو

طفلين من الجرحى وكان الناس يجرون إلى المخابىء المحفورة فى الأرض عندما بدأت القنابل تسقط من جديد . الذين كانوا قريبين لجأوا إلى العيادة لأن عليها علم الهلال الأحمر والصليب الأحمر ولأنها مميزة عن كل المبانى بطلائها الأبيض والمفروض أن يبتعد عنها القصف . ولم يكن تدفق الناس على المستشفى شيئا سيئا . طلبنا من الأصحاء الذين لجأوا إلى العيادة أن يساعدونا فى إعداد أماكن لبقية الأطفال والنساء فى الطابق الأرضى وجندنا بعضهم للمساعدة فى الإسعافات الأولية للجرحى الذين لم ينقطع وصولهم إلى عيادتنا غير المجهزة وكنا مستغرقين فى العمل مع جرحى الغارات الجوية عندما سمعنا فى المساء قصفا من نوع جديد يسبقه صفير طويل ثم دوى مكتوم قبل أن تتوالى انفجارات متلاحقة وارتجاجات فى المبنى وزلازل فى الأرض ..

قال البعض فى ذعر وصلت الدبابات والمدفعية الثقيلة . وأضيف إلى جرحانا من اخترقتهم شظايا الزجاج الذى صمد من قبل للغارات فى العيادة ولكنه تهشم مع هذه الانفجارات ، وأضيف أكثر منهم بكثير ممن استطاعوا الوصول إلى العيادة من البيوت والمخابىء المجاورة . كان البعض يدخلون وهم يحملون أطفالهم أو أمهاتهم أو زوجاتهم طالبين إسعافهم دون أن يلاحظوا أن الدماء تنزف من رءوسهم هم أنفسهم أو من صدورهم . وكان البعض يندفعون صارخين والنيران تشتعل فى ثيابهم وأجسادهم ويسقط الكثيرون ميتين بمجرد أن يدخلوا العيادة . وعجزنا عن إسعاف هؤلاء الوافدين بأكثر من المسكنات والمراهم . وأخذنا نساعد الأطباء فى عمليات عاجلة لم نتدرب عليها نحن ولا تدربوا هم . بتر أذرع وسيقان وجراحات فى العيون وفى الجمجمة وكل ما يخطر على البال ، ولم ينقطع وصول المصابين ، ولم يعد فى المستشفى مكان لأى حركة . وكان مرضانا الأصليون ، أطفالنا المعوقون ، أقصد من كان يستطيع الحركة منهم ، يجرون فى كل مكان يضعون أيديهم على آذانهم وهم يصرخون ويريدون الخروج . والبعض يريد أن يلقى بنفسه من النافذة ليهرب من هذه الارتجاجات والأصوات ..

وكان من الصعب جدا أن نفرغ واحدة من الممرضات اللاتى يعرفن حالاتهم لكى تعنى بهم ونحن فى هذه الظروف .

وفى لحظة توقف فيها ضرب المدافع غامر الطبيب البلجيكى فرانسيس كابيه وقال سأحاول شيئا مع الاسرائيليين . ركب سيارة إسعاف حشر فيها من استطاع من حالات الحروق والجراح الخطيرة وخرج فى اتجاه مدخل المخيم ولكنه عاد بعد أقل من نصف ساعة ليقول إن الإسرائيليين رفضوا تسلم الجرحى وقالوا: إنهم لن يقدموا له أى مساعدة إلا إذا سلمهم الإرهابيين ، يقصد الأطباء والممرضين الفلسطينيين الذين يعملون معنا فى العيادة . وهمس دكتور كابيه فى أذنى إنه بالكاد استطاع أن يسلم ١٠ من المصابين الذين أخذهم إلى المستشفى الحكومى اللبنانى فى صيدا . قال إن هذا المستشفى مكدس أيضا وإن الحالة هناك تشبه الحالة هنا . ولم يكن لديه الوقت ليقول أكثر من ذلك ولا كان عندى الوقت لأسمع . نفدت كل الأدوية التى كانت فى عيادتنا ولم يبق عندنا ما نقدمه من إسعاف غير الكلمات وأن نضع أغطية على وجوه الموتى .

وفى الصباح كان كل شىء قد انتهى . أقصد أن كل شىء فى المخيم كان قد انتهى . البيوت والبشر وكل شىء . عندما خرجت لحظات فى الفجر لم أتعرف على المكان . كانت هناك حرائق فى البيوت القليلة التى ظلت قائمة ، ولهب ودخان يخرج من أنقاض البيوت التى تهدمت . وكان هناك أشخاص قلائل يجوسون وسط الأنقاض . يبحثون عن أقاربهم أو عن جثث أقاربهم ويسعلون مثلى طول الوقت . لم يكن هناك صوت آخر غير السعال وأنين خافت مكتوم لا تعرف إن كان يصدر من البيوت القائمة أو من تحت الانقاض . وعلى الأرض كانت الجثث والأشلاء فى كل مكان ، وبالذات حول المخابىء . سأشرح لك شيئا عن هذه المخابىء . كانت حفرا فى الأرض مغطاة ومبطنة بالأسمنت ، وكانت تصلح إلى حد ما ضد الغارات الجوية ، لأنه ما لم تخترق القنبلة السقف مباشرة فإن المخبأ يحمى من الشظايا ، ولكن مع المدفعية الثقيلة التى كانت تدك البيوت والأرض ،

تحولت معظم هذه المخابىء إلى مقابر لمن لجأوا إليها، وكانوا يتكدسون بالعشرات أطفالا ورجالا ونساء فى هذه المخابىء ، رأيت واحدا منها وكان قد تحول إلى بحيرة صغيرة تطفو فوقها رءوس وسيقان وأذرع واستطعت أن أحصى من الجثث الطافية ..

لاحظت أن صوتها قد اختنق وأنها كانت تشير إلىّ بيديها أن أوقف التسجيل فضغطت على الزر . غلبتها دموع لم تستطع أن توقفها فراحت تمسح بإصبعها ركنى عينيها وهى تقولى لى : معذرة . أنا ممرضة محترفة . رأيت فى حياتى كثيرا من الألم وكثيرا من الأشياء الصعبة ، وتعودت أن أتحمل . ولكن عندما رأيت ...

قلت بصوت ضعيف : إن كان يؤلمك أن تتحدثى فيكفى هذا ..

كان الصفير المتقطع قد بدأ فى أذنى والصداع خلف الرأس وكنت أتمنى بالفعل أن تكف و لكنها قالت : لا . مهما يكن فيجب أن أقول كل ما رأيته ويجب أن تنشره .

التفت مستنجدا نحو برنار الذى كان يعتمد ذقنه بيده ويراقبنا بفم مفتوح قليلا فقال : نعم يا ماريان . قلت لك إنى كتبت ملخصا .. ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

– كنت أحسب أننا تقدمنا قليلا عن عصر التتار.

فردت ماريان : لا أدرى ما أقول لك . أنا لم أنجب أطفالا وكانت فى نفسى غصة لذلك ولكن عندما شاهدت عذاب كل الأمهات هناك وكل هؤلاء الأطفال ... ثم تغلبت على خواطرها وقالت بنوع من الإصرار : فلنكمل . هل تريد أن نعيد هذا الجزء الأخير ؟

فقلت بما يشبه الصرخة : لا . ! ..

ثم استدركت : أقصد أن الصوت واضح . أستطيع أن أفهمه .

– إذن سأكمل من حيث توقفت . لم يبق الكثير على أى حال .

وبقلب مثقل ضغطت على زر التسجيل فواصلت ماريان .

- رجعت إلى العيادة وأنا أعدو وأبكى وقررت أن أكرر المحاولة التى قام بها دكتور كابيه بالأمس . كنت أعرف أنه لو قاد سيارة الإسعاف سائق فلسطينى فسيقضى عليه الإسرائيليون على الفور . فقدت أنا السيارة وأخذت معى زميلة هولندية وحشرنا فى السيارة الحالات الخطيرة التى يلزمها إنقاذ عاجل . واحدة من هذه الحالات كانت سيدة اسمها خضرة الدندشى . أعرفها لأنها جاءت أصلا إلى عين الحلوة من مخيم الرشيدية بعد أن دخله الإسرائيليون وقبضوا على زوجها. وأصيبت فى مخيمنا بجرح غائر فى كتفها وكانت ذراعها تتدلى منتفخة بالشظايا وبالدم المتخثر . كان لابد من بتره ولكن لم يكن لدينا أجهزة ولا أدوية . ذهبت بها مع الآخرين إلى المستشفى الحكومى غير أنه لم يكن هناك مكان . أخذتها إلى مستشفى خاص كنا نتعامل معه من قبل ، وقابلت صاحب المستشفى واسمه غسان محمود .

أخذنى إلى مكتبه وكان غسان مهذبا ولكنه كان حازما وهو يقول لى إنه لا يستطيع قبول مرضاى . قال لى هذا مستشفى خاص له سمعته ومرضاك قذرون للغاية .. لابد لى أن أحافظ على سمعة المكان . ولم تنفع معه أى محاولة فعدت بمرضاى وتركتهم أمام باب المستشفى الحكومى . كانت خضرة الدندشى فاقدة الوعى ولا أعرف إن كانت قد ظلت حية أم لا ..

وعندما رجعت كان الإسرائيليون قد دخلوا المخيم... قبضوا على كل الأطباء والممرضين الفلسطينيين . وأخذوا كل الجرحى من الشباب وكانوا يسوقونهم ضربا . قال لهم الدكتور فرانسيس : اعتقلوا الأطباء والممرضين هنا فى المستشفى. عندى جرحى ومرضى من الأطفال والنساء واحتاج إلى هؤلاء الأطباء فقال له أحد الجنود :

- اسكت أنت يا إرهابى ! .. اسكت يا بادرماينهوف. ربما نعود لنأخذك أنت أيضا ..



كانت ماريان تتكلم ، وكان الشريط يسجل ولكنى لم أعد أسمع غير ذلك الصفير المتقطع فى أذنى وكلمات متناثرة .. الرشيدية .. الناقورة .. المخابىء .. الأنقاض .. السفير النرويجى .. وفى النهاية لاحظت أن صمتا طويلا قد حل ثم سمعت ماريان تقول بصوت مرتفع :

- هل تريد أن تسأل عن شيء محدد ؟

فقلت دون تدبر : نعم ، كيف استطعت الخروج من لبنان ؟

تأملت ماريان وجهى فى دهشة وهى ترد : ولكنى قلت لك هذا منذ البداية وكررته توا . قلت إن سفير النرويج فى تل أبيب تدخل للإفراج عنا وترحيلنا بعد أن احتجزونا فى العيادة دون عمل .

كان الصفير يتحول إلى طنين ، فقلت دون وعى :

ـ نعم . أنا آسف . ولكن لماذا ذهبت أصلا إلى لبنان ؟

ولما لاحظت أن الدهشة تمتزج فى وجهها بالغضب حاولت أن أعتذر ولكن برنار خرج عن صمته ليقول لماريان : صديقى يريد أن يعرف ما الذى جعلك تغامرين بالعمل فى لبنان. بصراحة أكثر يريد أن يسأل عن ميولك السياسية ، أليس كذلك ؟ ..

هززت رأسى مؤمنا على كلامه وأنا أقول : هذا بالفعل ما أردت أن أسأل عنه. هل أنت مثلا ...

فقاطعتنى ماريان وارتفعت نبرة صوتها قليلا وهى تقول : لا . لست مثلا . لست مثلا أى شيء . لست شيوعية ولايسارية ولا عضوا فى بادر ماينهوف ولا فى الجيش الأحمر كما كان يقول لنا الإسرائيليون على سبيل الإهانة. لست عضوا فى أى حزب أو منظمة من أى نوع .

- وإذن فلماذا ؟ ..

- ذهبت أول مرة مع زوجى الطبيب بناء على إعلان . كانوا بحاجة إلى طبيب

وإلى ممرضة لعلاج الأطفال المعوقين ، وهذا هو تخصصي . كان الإعلان يناسبنا تماما فقدمنا الطلب ..

ثم ترددت لحظة قبل أن تقول : ولكني سأعترف بأني بعد أن سافرت كممرضة عادية أول مرة ، ذهبت بعد ذلك لأني لم أصدق ما رأيت . لم أصدق أن شعبا بأكمله يمكن أن يكون مباحا للقتل وأن يكون دمه رخيصا إلى هذا الحد . مازلت حتى الآن لا أصدق أن كل هؤلاء الآلاف يموتون لأن هناك شخصا واحدا ضربه مجهول بالنار فى لندن .

سكت لحظة ثم وجدت نفسى أكرر ما قاله برنار فى البداية : سامحينا .

فقالت : ولكن ماذا فعلت أنت أيضا لكى أسامحك ؟ ..

وعدت إلى الصمت وعاد الصفير فى أذنى ولما قامت لتنصرف صافحتها وأنا أغمغم باعتذار آخر فقالت نافدة الصبر : أنا لا أفهم لماذا تعتذر لى أنت وبرنار ، ولكن أرجوكما أن تفعلا شيئا . اكتبا الحقيقة . فقال برنار وهو يصافحها بابتسامة متعبة على شفتيه : نكتب الحقيقة ؟ .. ذلك أصعب من إنقاذ جرحاك فى لبنان ، صدقينى . ولكن من يدرى ؟



كنا نسير صامتين فى الطريق برنار وأنا ، وخطر ببالى للحظة أننى لو كنت قد ساعدت يوسف على إصدار الصحيفة التى يريد نشرها مع صديقه المليونير لاستطعت أن أكتب ما أريد عن شهادة ماريان . وتذكرت أيضا أن أحد أصدقائى يعمل فى مجلة عربية فى باريس وأنه عرض على أن أكتب فى هذه المجلة .

وقلت بصوت مسموع : ولكن ما أهمية النشر بالعربية فى أوروبا على أية حال؟ لمن سنتكلم ؟

وكان برنار مشغولا بأفكاره الخاصة فالتفت نحوى وهو يقول : نحن أحيانا ننسى .. ولكن أليست مهنتنا هى أن نقول الحقيقة مهما كان الثمن ؟

فضحكت بصوت مرتفع .

قال برنار : ما الذى أصابك ؟ .. لماذا تضحك هكذا ؟

فوقفت فى الطريق وقلت لبرنار فى ذهول : أنت تسألنى ما الذى أصابنى ؟ أنت تسألنى بالفعل ؟!

وظللت واقفا فترة أتطلع إلى وجهه المدهوش ثم لوحت له بيدى مودعا وانصرفت.



حين وصلت إلى الشقة أخذت حبتين من الأسبرين وجلست على الفور إلى المكتب ، وضعت أمامى جهاز التسجيل والأشرطة . وكان المكتب مزدحما فقضيت وقتا فى تنظيم الصحف المكومة . رميت الصحف التى قطعت منها القصاصات المهمة ، ورتبتُ الصحف الأخرى التى لم أفرغ من قراءتها والتى لم أفتحها ثم وضعت القصاصات فوق الصحف فى ركن من المكتب .

جربت القلم الرصاص الذى أكتب به ثم بريت أقلاما أخرى ووضعتها إلى جانب دفتر الكتابة .

نظرتُ إلى صورة خالد وهنادى على المكتب ، ثم رفعت نظرى إلى عبدالناصر المبتسم وسألته : ماذا أكتب ؟ ..

قلت له ماذا أفعل ؟ .. جربت كل شىء . كتبت موضوعا لنصف صفحة على الأقل عنوانه «ارتياع فى أوروبا لمجازر بيروت» فنزل فى نصف عمود تحت عنوان «دول أوروبا تنتقد مواقف إسرائيل» . أنقل فى مقال فقرات طويلة من تقارير الصليب الأحمر وجمعيات حقوق الإنسان التى تتكلم عن قصف المستشفيات وعن استعمال القنابل الفوسفورية والعنقودية المحرمة دوليا ، فيختفى ذلك كله من صلب المقال . فى كل مرة «أخفف» اللهجة لكى ينزل المقال . أنقل ما تقوله مصادر محايدة ولا أذكر رأيى . أحكى عن عضو مجلس نواب أمريكى ، أمريكى هذه المرة ، توقف فى المدينة فى طريق عودته من بيروت . أكتب أنه قال إن ما

يحدث فى بيروت هو جريمة العصر . أنقل قوله إن أمريكا تدفع لإسرائيل ٧ ملايين دولار من المعونات يوميا وإن هذه الأموال هى التى تستخدم لقتل الأطفال والنساء فى بيروت ، فيكون الخبر «سيناتور أمريكى يقترح خفض المعونة لإسرائيل !»

ماذا أفعل ؟ .. ماذا أكتب ؟ .. لا يمكن على أى حال أن أضع شهادة ماريان فى الرسالة الشهرية ! .. كيف ؟ .. ممرضة نرويجية تمشى على يديها ١٤ ساعة وتحكى مشاهداتها فى بيروت ؟ .. تضرب الرقم القياسى فى إحصاء الجثث ؟ .. ماذا أفعل ؟

ظللت أجلس لحظة والقلم فى يدى ثم قمت إلى المطبخ وصنعت فنجانا من القهوة . ضاعفت كمية البن ووقفت ممسكا (الكنكة) فوق الشعلة الخافتة أراقب بحرص الفقاقيع وهى تتخلل البن حتى لا يفور وينسكب . عدت بفنجان القهوة وأنا أقول ، نعم يا برنار ، أصعب من إنقاذ المصابين فى بيروت ! ..

شربت فنجان القهوة بسرعة فبدأ قلبى يدق بشدة . ولكنى جلست إلى المكتب وأمسكت القلم . كتبت عنوانا : سفير النرويج يحتج لاحتجاز ممرضات ، ثم شطبت العنوان ورحت أرسم فى الورقة مربعات وأهرامات .

أمسكت أول واحدة من القصاصات التى أمامى . كانت صحيفة عربية تصدر فى باريس وكان الكاتب يسأل : حتى متى الصمت ؟ .. ماذا جرى ؟ .. ألم تكن دماؤنا تسيل بالأمس غضبا على الفرنسيين فى دمشق وفى تونس وطلبا للجلاء بالدماء ، فما الذى جرى لهذه الدماء ؟ .. أين ضاعت النخوة التى تجعل الإنسان ينتفض لنجدة أخيه ؟ دعك من الإنسان ! النخوة التى تجعل ذئاب الغابة تجتمع لتدافع عن نفسها ضد نمر أو أسد . هل نحن أسوأ من الذئاب والوحوش ؟ ..

بقية القصاصات كانت تردد الأسئلة نفسها : كيف ؟ .. لماذا ؟ .. والعبارات نفسها: العار ! .. الصمت .. المؤامرة ، إلخ ، إلخ .

سألت نفسى : إذن ماذا بقى لكى يقال ؟

سألت نفسي ومن يناشد هؤلاء الكتاب بالضبط ؟ .. ما معنى أن يسأل كل واحد الآخر ماذا جرى ؟ .. كأنما هناك عرب آخرون غيرنا نحن الذين نسأل ! .. عرب يختفون في مكان مسحور ننتظر منهم أن يظهروا ويتحركوا بالنيابة عنا جميعا !

ما العمل ؟ .. قمت وأخذت أتمشى فى الغرفة .

أعمل قهوة أخرى ؟ .. بماذا تفيد ؟ ..

كانت المساحة التى أتحرك فيها صغيرة جدا فكنت أمشى ثلاث خطوات وأعود إلى المكتب . أمسكت وأنا واقف بأول صحيفة تحت القصاصات . فى الصفحة الأولى كانت هناك صورة أعرفها . قرأت الخبر فرجع الطنين الحاد إلى أذنى . جلست على الكرسى دفعة واحدة . ظللت أمسك الصحيفة ويدى ترتعد . قلت لعلى لم أفهم ، وقرأت الخبر مرة أخرى . لا . ليس هناك أمل فى ألا تقرأ ما قرأت ! .. قرأته بالفعل ولن ترجع مرة أخرى تلك اللحظة التى كنت تجهل فيها والتى كان لا يزال فيها حيا . نعم ، خليل حاوى أطلق الرصاص على رأسه فى بيروت . هذا حدث وانتهى فلا أمل فى ألا تعرفه .

تركت الصالة وتمددت بثيابى على السرير. رحت أضغط بيدى على قلبى وكأنى يمكن بهذه الطريقة أن أهدئه ..

حريص أنت على حياتك ؟ .. تخاف من هذه الدقات السريعة ومن الطنين فى الأذن ؟ .. لا تخف ، لن تموت ، سيحتمل قلبك الحجرى قصة عين الحلوة والقهوة الثقيلة وموت الشاعر. لا تخف . لو أن دماء بالفعل هى التى يضخها قلبك لكنت الآن هناك ، إلى جواره ، مصروعا إلى يمينه . لا تخف ، لن يحدث لك شىء .

قفزت من الفراش وخرجت مرة أخرى إلى الصالة ووقفت أمام عبدالناصر . سألته لماذا يعيش غسان محمود ويموت خليل حاوى ؟ .. لماذا يموت من صدقك وصدق الرؤيا ؟ .. كان قد رآنا – كما قلت أنت – نغتسل الصبح فى النيل وفى الأردن وفى الفرات . فلماذا كذبت عليه ؟ .. لماذا ربيت فى حجرك من خانوك

وخانونا ؟ .. من باعوك وباعونا ؟ .. لماذا لم يبق غير غسان حمود ؟ .. لا تدافع عن نفسك ولا تجادلنى ، فها هو خليل حاوى قد انتحر ! ثم ماذا تريد أن تقول ؟.. إننا كان يمكن أن نفعل شيئا ؟ .. كيف وخليل حاوى لم يكن يملك شيئا غير ضلوعه ، تلك التى مدها جسرا وطيدا من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد ؟ أى شرق جديد ولم يعد هناك شىء غير الكهوف والمستنقع وغسان محمود ؟ .. كيف كنت تريده ألا يطلق الرصاص على رأسه ؟ .. سلاحه لم يكن يصلح لشىء غيرها فما رأيك ؟ ..

لا تبك ! .. على الأخص لاتبك ! .. ولا داعى لهذه الحشرجة فى الصوت ، ولا داعى لقرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس مساهمة مصرية – ولا داعى لقامت دولة عظمى تحمى وتهدد وتصون وتبدد ولا داعى لكل هذا الطنين فى الأذن فأنا لا أحتمل ! أسمعت ؟

ثم أى زجاج هذا الذى يتناثر فى الأرض؟..

ومن أين يأتى هذا الرنين ؟ ..

من الذى يصرخ ؟

وما الذى يسقط ؟

الفصـــل الســـابع

ليل حنون .. حديقة حانية

وكان ما كان ،

ثم جاء ت السكينة وجاء الجمال ... ثم أصبح القط الأسود يطارد الفأر ، والفأر يخطف الجبن ، ثم كان القط يضع القنبلة فى الجبن لكى تنفجر فى الفأر ، فيلقى الفأر الجبن على القط ، وحين ينفجر يسقط القط على ظهره ، ولكن لا يحترق منه غير شعره وذيله ، ثم يرجع قطا كما كان ويعود ليطارد الفأر ...

بعدها يأتى الرجل المضحك السمين لكى يضرب الرجل المضحك الرفيع ، أو ربما العكس ، ثم يأتى شارلى ليقول غدا تشرق الشمس وتغرد الطيور وتتفتح الأزهار ولكى يأكل حذاءه حين يجوع . وكنت ابتسم لشارلى ، وحين تتعب عينى أفتح الراديو المثبت إلى جوارى فتنبعث منه موسيقى حلوة تقول نم ، نم ، نم ، فأنام .

وفى النهار كنت أتمشى قليلا . أقضى وقتا فى الصالة الخارجية . أشاهد التليفزيون وأراقب زملائى ويراقبوننى ، ونتبادل الابتسامات والأحاديث . وفى الصالة كان التليفزيون يقدم البرامج نفسها مثل ذلك الجهاز الصغير المعلق فوق سريرى . لم تكن هناك أى أخبار أو أى برامج . لم يكن هناك أى عالم حقيقى ، بل أفلام الرسوم المتحركة المتعاقبة وبعض الإعلانات عن أدوية الحموضة وعن معاجين الأسنان تملأ الشاشة بفتيات جميلات يكشفن أسنانهن البيضاء وابتساماتهن العريضة . وكنا فى صالة هذا الطابق المخصص لحالات القلب والأوعية الدموية ، نجلس بالساعات ونحن نحبك الأرواب فوق جلابيب المستشفى البيضاء التى تشعرنا بالعرى ، ونتابع بعيون نعسانة ميكى ماوس ونقّار الخشب والكلب الكسلان ولوريل وهاردى ، ونضحك بوقار طوال الوقت ، قبل أن تأتى لكل

منا ممرضة فى حوالى السادسة أو السابعة وفى يدها الحبوب المهدئة والماء ، وعلى شفتيها الابتسامة المهدئة ، وبعدها نذهب إلى غرفنا ثم يأتى النوم السعيد ، لنصحو فى الصباح ونرى القط يطارد الفأر ...

كان الطبيب قد قال لى إننى محظوظ ، وإنه لو لم ينقلنى برنار في سيارته على الفور لقضت علىَّ الأزمة بعد دقائق ، لأنه كانت هناك أيضا جلطة تتكون فى أحد الشرايين وتتحرك نحو القلب . وشرح لى أننى يجب بعد هذه الأزمة أن أعوِّد نفسى على عدم الانفعال وعلى الاعتدال فى الأكل والشرب ، ويجب ألا أقرب التدخين . ولما قلت له إننى امتنعت عن التدخين منذ مدة . رد وهو يبتسم بنوع من التأنيب : ولكن ها أنت تدفع ثمن السنوات السابقة ! .. كان طبيبا شابا ، وقيل إنه عبقرى ، ولكنه لم يكن يقدم أى تشجيع أو أمل . غير أن الحبوب المهدئة كانت أثمن هداياه . أصبح النوم يأتى بسهولة وكثرة ، وابتعدت الأفكار السيئة ومعها كل الأفكار الأخرى .

واعتاد برنار أن يأتى لزيارتى فى طريقه من الحضانة التى يودع فيها طُفله الفييتنامى جان – باتيست . كان فى حوالى الرابعة أو الخامسة مدور الفم تقريبا، تشع عيناه السوداوان بالذكاء ولكنه يلتصق ببرنار ويرفض أن يكلم أحدا ، وكنت أعرف بالتجربة أنه يستحيل أن تكسر بالإلحاح قشرة طفل خجول ، فتركته أملا أن يألفنى ذات يوم . اكتفيت بأن أقدم له كلما جاء قطعا من الشيكولاتة فى العلبة التى أحضرها لى يوسف المصرى فى أول زيارة له ، ثم انهمك بعد ذلك فى الحوار مع برنار . أشكره لأنه أنقذ حياتى فيغرق فى الضحك . يقول إنه فى الحقيقة أنقذ نفسه لأنه كان سيشعر بالذنب لو حدث لى شئ بعد تلك المقابلة مع ماريان ، قال إنه رأى فى عينى شيئا أقلقه عندما تركته فى الطريق بعد المقابلة ، وحين طلبنى فى التليفون لم يفهم شيئا مما قلته ولكنه سمع صرخة وارتطام السماعة فى الأرض فأدرك ماحدث . وكنت أحكى لزملائى فى الغرفة أو فى الصالة تلك القصة وأقول إننى مدين له بحياتى ، فيلفت برنار نظرى برفق إلى أننى سبق أن حكيت لهم هذا كله ثم يكمل أنه لابد أن يجرب هو أيضا هذه الأدوية التى تجعلنى أفقد

الذاكرة وتجعلنى مهذبا إلى هذا الحد . ولكن برنار رفض تماما أن يحضر لى أى صحيفة أو أن يحدثنى عما يدور فى لبنان . قال إن الطبيب منع أى شئ يمكن أن يثير انفعالا وإنه أعطى تنبيها صارما لكل الزوار ، ولم أكن أشعر فى نفسى بأية قدرة على الإلحاح فى الطلب ، فكنت أتسلى بمتابعته وهو يبذل كل جهده لكى لا يدخل فى الحديث أى موضوع مثير للقلق ! ... وفى النهاية اكتفى بأن يحكى لى قصصه مع جان - باتيست . كان يشكو دائما من أنه يعذبه فى الذهاب إلى فراشه فى موعده فى الليل .

وقال لى ذات مرة إنه هدده بالأمس بأن يعاقبه ما لم ينم ، فرد جان - باتيست بأن ذلك لا يهمه لأنه يستطيع أن يحول نفسه إلى عصفور ويطير قبل أى عقاب . واستشهد برنار بى على أن كل الناس يجب أن تنام فى موعدها لكى تصحو نشيطة فى الصباح ، فأمّنت على كلامه وقلت وأنا أتطلع نحو جان - باتيست :

- وكذلك كل العصافير وكل القطط وكل الكلاب لابد أن تنام فى موعدها فى الليل .

ففاجأنى بأن صوب نحوى عينيه السوداوين فى نظرة متحدية وسألنى :

- وهل تذهب السمكة لتنام فى موعدها بالليل ؟ .

- نعم .

- كيف ؟

- عندها بيت صغير تحت الماء تذهب لتنام فيه .

مط جان - باتيست شفتيه مستهزئا وسكت لحظة قبل أن يقول لى : والسمكة الصفراء التى عندنا فى الحوض ؟

نظرت نحو برنار لكى ينقذنى ، فقال وهو يضحك نافد الصبر :

- هى لا تنام . وما لم تنم أنت فى موعدك فستصبح بالتأكيد سمكة صغيرة صفراء ! هل فهمت ؟ .

ولم يكن مسموحا لى بأن أخرج عن هذا المستوى من الحوار .

حتى يوسف الذى كان يزورنى كل يوم تقريبا لم أنجح فى استدراجه ليقول لى شيئا عما يحدث فى العالم .

زارنى أول مرة مع زوجته التى قبضت على يدى بمجرد دخولها بيديها الاثنتين معا ، وخاطبتنى كما لو كانت تحدث طفلا : يا سيدى الطبيب المسكين ! .. مع أنك كنت تراعى صحتك جيدا ! .. لم تكن تشرب غير القهوة الطبية ! .. فقال يوسف بشئ من الخجل : كفى يا إيلين . هو بخير .

نظرت نحو يوسف كأنها تتهمه بأنه هو الذى قال العكس وقالت : ماذا تظن ؟ .. السيد بخير . بالطبع ! هى وعكة بسيطة وسيخرج بعد أن يرتاح قليلا ..

ثم همست تخاطبنى وكأنها تطلعنى على سر : الممرضات قلن لى إن تحسنك مذهل ... م ... ذ ... هـ ... ل ... ! عما قريب سنكون على قدمينا فى الطريق . ما رأيك ؟ ..

فكرر زوجها بلهجة أشد حزما : كفى يا إيلين !

وأصبح يوسف بعد ذلك يأتى بمفرده . واعتاد أن يحدثنى أيضا مثل برنار ومثل ميكى ماوس ومثل شارلى شابلن عن أشياء مسلية وأشياء مضحكة . وكانت حكاياته المفضلة هى ما جرى له عند وصوله إلى البلد ومغامراته أيامها ليجد مكانا ينام فيه . قال إنه عندما وصل فى الصيف لم يكن هناك مشكلة إذ اعتاد أن يجد مكانا منزويا فى الحدائق العامة بعيدا عن أعين الشرطة . ولكن متاعبه بدأت عندما حل شتاء البلد الصعب . وكان فى البداية محظوظا : اكتشف قبوا يستخدمه السكان مخزنا فى عمارة هادئة ، فيه سرير قديم . فكان يتسلل إليه فى وقت متأخر وينام حتى الصباح ، غير أن واحدا من السكان اكتشفه ذات ليلة واعتقد أنه لص وأراد أن يستدعى الشرطة لولا أنه نجح فى الفرار . قال إنه قضى تلك الليلة مقرفصا فى كابينة تليفون بحثا عن شئ من الدفء ، ولكن الهواء كان يخترق الكابينة من كل مكان وفى الصباح كان قد تجمد بحيث لم يعد يستطيع السير على قدميه . قال إن مصريا له خبرة سابقة تعرف عليه فى إحدى الحدائق العامة أنقذه من الهلاك . لم يكن يوسف يعمل ولم تكن لديه أوراق إقامة فى البلد ونفدت كل النقود التى كانت معه وبدأ يفكر فى الرجوع إلى مصر . فكر أن العودة إلى السجن أرحم مما هو فيه. ولكنه تعرف على (مأمون) الذى كان

عاملا فى مصر وعاطلا هنا ، فدله كيف يأكل وكيف ينام .. عرفه أولا على جمعية خيرية تقدم وجبة مجانية بسيطة للفقراء وتوزع عليهم مبالغ زهيدة كانت تكفيه لأن يأكل شيئا فى المساء . واصطحبه فى الليلة نفسها إلى منامته الخاصة ، تسللا فى الليل إلى مخازن السكة الحديدية وكانت هناك عربات قطارات منفردة مغلقة ومع مأمون مفتاح خاص ، فتح به عربة نوم الدرجة الأولى حيث كان الفراش مريحا والأغطية ثقيلة ، ونبهه إلى أهم درس لمواصلة الاستمتاع بهذه النعمة ، وهو ضرورة الاستيقاظ قبل نور الفجر ومغادرة العربة قبل وصول عمال المخازن . قال يوسف إنهما قضيا فى تلك العربة أياما سعيدة ، ولكن ذات صباح بعد أن سهرا طويلا مع الشراب والدردشة ، استغرقا فى نوم عميق وفى الصباح اكتشفا أن العربة تتحرك بسرعة وأنهما على سفر لايدريان مقصده . قضيا الوقت فى تبادل مراقبة مفتش القطار والتنقل من عربة إلى أخرى ثم نزلا فى أول محطة . وهناك اكتشفا أن الناس يتكلمون لغة غريبة لا يعرفانها ، وقفا فى المحطة حائرين إلى أن وجدا شخصا له ملامح عربية فسألاه أين هما ؟ ... غضب الرجل واعتقد أنهما يسخران منه ، ولكنه بعد شئ من الشرح والإلحاح قال إنهما إن كانا لا يعرفان حقا فليعلما أنهما فى ميلانو . وبعد أن انصرف الرجل سأله مأمون متحيرا : وفى أى داهية ميلانو هذه ؟

ولما سألت يوسف وكيف استطعت أن ترجع إلى هنا مرة أخرى ؟ قال ضاحكا رجعنا بعد أيام ، فى عربة النوم نفسها وبالطريقة نفسها .

حكى لى يوسف كل الأشياء الصعبة التى مر بها كما لو كانت نكتة ، غير أنه كان يتوقف دائما قبل تعرفه على إيلين وزواجه منها . وكان يطرأ على بالى أحيانا ويوسف يحكى لى بيدرو إيبانيز ، أسأل نفسى هل ينام الآن فى قبو أو فى قطار؟ وهل أصبح حقا أسعد حالا مما كان فى معسكر الاستقبال ؟

وكان يوسف ينقل لى بين حين وآخر تحيات الأمير وسؤاله عنى ، غير أنى كنت أتلقى فى كل يوم أيضا باقة زهور ضخمة ومنسقة بعناية ، مع بطاقة «تحيات الأمير حامد بن ... وتمنياته بالشفاء» . وفى آخر اليوم كنت أوزع هذه الباقات

بالتناوب على المرضات فيسعدن بهذه الزهور الثمينة النادرة .

★ ★ ★

واعتادت بريجيت أن تأتى كل يوم فى الظهيرة فى فسحة غدائها المعتادة ، تدخل بزيها الأزرق وفى يدها باقة صغيرة من الزهور ، فتشيع ابتسامتها البهجة فى الغرفة بمجرد أن تخطو إليها . وكنت أشعر بنوع من الزهو حين أرى نظرات المرضى الآخرين المبهورة . وافتعالهم أى مناسبة للاقتراب منا والحديث إلينا . ولكن هذا الزهو انقلب إلى شعور بالعار وبالخجل من نفسى حين قال أحدهم يوما بعد أن انصرفت وهو يغمز بعينه هل هذه هى السبب فى أنك هنا ؟ .. فى مثل سننا يا صديقى يحسن أن تتجنب الصغيرات والجميلات . لم تعد قلوبنا تحتمل ذلك . غمغمت محتجا وغاضبا بالقدر الذى تسمح به أدويتى ، وأنا أقول إننى لا أسمح له أن يقول ذلك ، وإنها مجرد صديقة وإنها فى سن ابنتى وكلام كثير من هذا النوع ، ثم أصبحت أحرص بعد ذلك حين تأتى أن أختفى بها عن الأنظار فى قاعة أخرى أو فى طابق آخر فى المستشفى . وفى تلك الأيام كانت هى التى تثرثر، تبحث أيضا عن حكايات مضحكة تسلينى . ومع استمرار «التحسن» والأدوية المهدئة لم أكن أستطيع مقاومة القهقهة حتى على الأشياء التى لا تستحق ذلك ، فكانت هى تضحك لبهجتى المستمرة .

وفى اليوم السابق لمغادرة المستشفى استدعانى الطبيب إلى مكتبه . قال بمنتهى الجدية إنه درس حالتى فوجد أننى أعمل صحفيا وان هذا العمل لا يناسب حالتى الآن ويجب أن أغيره . أوشكت أن أضحك أيضا لهذه النصيحة ولكننى وعدته أن أبذل جهدى فى أسرع وقت . ونبهنى الطبيب إلى أننى يجب ألا أتجاوز فنجانين من القهوة فى اليوم ، ويمكن بعد أسبوعين أن أمتنع عن الحبوب المهدئة . أما أقراص الضغط وسيولة الدم فيجب أن أفهم أنها منذ الآن جزء من روتين الحياة اليومى ، قلت إننى فهمت فلم يبد مقتنعا بذلك تماما ، وكرر التعليمات بطريقة أخرى .

وبمجرد أن خرجت من المستشفى اشتريت صحف اليوم وتوجهت إلى مقهاى

على شاطئ النهر ، بدا المشى فى الشوارع ولفحة الهواء كالمفاجأة بعد أيام احتجازى فى المستشفى ، ولم أكن أستطيع المشى بسرعة فأخذت أتمتع بحريتى الجديدة على مهل . ولاحظت حين وصلت إلى المقهى أن الزهور فى أحواض المدخل قد تغيرت ، أصبحت هى زهور نهاية الصيف وبداية الخريف بألوانها الهادئة البنية والبنفسجية والصفراء الداكنة .

بدأت أقرأ الصحف وأنا أشرب كوبا من العصير ، ولكنى تركتها بعد فترة قصيرة ورحت أنظر إلى النهر . كانت العناوين هى نفسها والاحصاءات هى نفسها - آلاف القنابل من الطائرات وآلاف القذائف من المدافع على بيروت المحاصرة . وأجرت واحدة من الصحف مقارنات فقالت إنه سقط بالأمس فوق بيروت ١٨٥ ألف قذيفة توازى ٢٦ ألف طن من المتفجرات . وحددت أنه سقط بالأمس أيضا ٢٨٠ قتيلا و ٥٠٠ جريح . وكان هناك مقال فى صحيفة عربية تقدمية يؤبن خليل حاوى ويقول إنه كان شاعرا كبيرا ولكنه أخطأ حين انتحر لأن الإنسان يجب ألا ينهار أمام الظروف الصعبة إلخ . إلخ .

طويت الصحف واستغرقت فى مشاهدة تشكيلات البجع ، وكان إلى جوارى رجل عجوز يعطى حفيده قطعا صغيرة من الخبز ليلقيها فى النهر ، فتجمع تحت النافذة سرب كبير يمد رقابه البيضاء إلى الماء ويرفعها فى وقت واحد ثم يميل نحو البط الصغير الذى يزاحمه لكى يهاجمه بمناقيره الحمراء الغاضبة ، فقلت لنفسى هاهى رقصة البجع الحقيقية .

وانتبهت بعد لحظة إلى أن بريجيت تقف إلى جوارى . قطبت جبينها حين رأت الصحف المطوية على الطاولة وقالت بنوع من التأنيب : والآن أيها العنيد العزيز ألم يمنع الطبيب ذلك كله ؟

لكنها قبلتنى فى خدى قبلة حارة وقالت كم أنا سعيدة لأنك رجعت . أنت لا تعرف كم افتقدت جلستنا فى هذا المكان !

ثم أخذت الصحف المطوية ورمتها فوق مقعد بعيد .

قلت : لاداعى لهذا يا بريجيت . ليس من أجل نصائح الطبيب ولكن أنا نفسى

قررت أن أفعل مثلك ، قررت ألا أقرأ الصحف أو أشاهد الأخبار بعد الآن . ما الداعى ؟ أنت قلت لم نكن نحن الذين أرقنا هذه الدماء ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفها . على الأخص لا نستطيع أن نوقفها .

- ها هو شخص يرجع عاقلا من جديد ...

ثم ضحكت وهى تكمل : ولو أننى لا أحب الناس العاقلين ! ولكننى كنت أحنى رأسى وأقاوم دموعا تريد أن تتكون فى عينى .

وعدنا نتكلم ونلتقى كل يوم . غير أن الأمور لم تعد قط كما كانت من قبل . أفهم أننى تغيرت قليلا بعد المرض والعلاج ولكننى كنت أسأل نفسى ما الذى غيرها هى ؟ ... لماذا اعتراها هذا الصمت والشرود الطويل ولماذا لم تعد تحكى لى قصصها اليومية مع السياح ؟ .

وأخذ يحدث لى أنا أيضا تغيير آخر فى هذه الأيام . فحتى بعد أن كففت عن الحبوب المهدئة أصبحت تنتابنى انفعالات غريبة ، بدأت ألاحظ ذلك فى المساء عندما كنت أجلس فى البيت أراقب الأفلام المصرية القديمة على الفيديو . كانت الدموع تصعد إلى عينى بمنتهى السهولة حين أشاهد فاتن حمامة معذبة من مكائد زكى رستم العجوز أو حين يهجر كمال الشناوى شادية دون مبرر وفى بطنها الجنين ، أمسح الدموع من عينى وأوقف الفيديو وأنا أحاول أن أضحك . أتذكر كيف كنت فى شبابى أسخر من هذه الأفلام وأتكلم عن تأخر فن السينما فى بلدنا وعن الميلودرامية وهذه الأشياء . فما الذى حدث ؟ ....

تطفر الدموع أيضا حين أستمع إلى صوت خالد أو هنادى فى التليفون . بكيت بالفعل يوم قالت لى هنادى إنها نجحت بمجموع ٧٠٪ وطلبت منها أن تسأل فورا عن اشتراك نادى الفروسية ، فقالت «ميرسى يا أجدع بابا . بس أنت بتعيط ولا شكلك كده ؟» .. وحين هنأت خالد أيضا على نجاحه المتفوق ، قلت له بصوت متهدج إننى فخور به وإننى أسامحه ، فرد خالد بدهشة «تسامحنى على إيه يا بابا» لكننى كررت أنى أسامحه وأنهيت المكالمة قبل أن أجهش بالبكاء .

وبصعوبة أيضا أصبحت أحبس دموعى أمام بريجيت ... أعاتبها عتابا شديدا

إذا ما تأخرت قليلا عن موعد الظهيرة وتضطر هى إلى الشرح وإلى الاعتذار بينما تطل دهشة من عينيها لأنها ترانى أحول وجهى للناحية الأخرى وأضعه بين كفى لأقاوم البكاء . وفى النهاية كان لابد أن أصارحها بما يحدث لى فقالت :

– بالنسبة لى أنا أجدك هكذا أفضل بكثير مما كنت من قبل . قلت لك إننى لم أحب فى حياتى الناس العاقلين جدا . ولكن لماذا لا تذهب إلى الطبيب مادام هذا يزعجك ؟ ...

غير أن طبيبى لم يفهم أى شئ ، فحصنى بدقة كعادته وأرسلنى أجرى فحوصا وتحليلات للدم ، ثم قال بعد أن راجع نتائج التحليل إن هناك تقدما كبيرا يحدث ، بل إننى أكاد أكون عاديا . ولما شرحت له مرة أخرى ما أشعر به وأننى لم أعد أستطيع أن أسيطر على دموعى ، استمع إلى باهتمام ثم كتب لى خطابا يحولنى به إلى طبيب للعيون وهو يقول : بعد أن نطمئن على حالة العين نفسها يمكن أن أحولك إلى طبيب نفسى .

أوشكت أن أشتم الطبيب لكنى أخذت الخطاب وغادرت العيادة بسرعة وكنت أدمدم وأنا أنزل السلم وشعرت أن الانفعالات القديمة ترجع مرة أخرى فوقفت فى مدخل العمارة أتنفس بعمق أحاول أن أهدأ وأحاول أن أتذكر أين ركنت سيارتى . وكنت بالفعل قد أصبحت أهدأ حالا بعد أن خرجت إلى الطريق وواجهتنى لذعة برد خفيفة منعشة .

مشيت الشارع الطويل كله أبحث عن السيارة دون جدوى ، فوقفت عند الناصية أظلل عينى بيدى وأنا أحاول أن أميزها بين عشرات السيارات التى تصطف على اليمين واليسار . لكنى بعد لحظة نسيت السيارة وكل شئ آخر . وسألت نفسى كيف لم أر هذا من قبل ؟ ... كيف فاتنى أن ألاحظه ؟ ... كيف غاب عن عينى هذا الخريف الجميل الذى بدأ هذا العام مبكرا عن موعده ؟

كانت الأشجار على جانبى الشارع فى ذلك الحى الهادئ قد شحبت خضرتها ووشتها الأوراق الصفراء اللامعة والطرية ، متوهجة فى الشمس . وكل شجرة زهرة عملاقة مزخرفة بالألوان الخضراء الباهتة والخضراء المصفرة والصفراء

البنية والمشربة بالحمرة ، والمفضضة ، وألوان أخرى لا أعرف وصفها وسط ذلك العيد الخريفى . وكان الهواء يدفع بعض الأوراق فتتطاير ببطء مثل فراشات مذهبة قبل أن تستقر على الأرض .. قبل أن تنضم إلى سرب هاجع آخر يصنع دائرة حول جذع الشجرة ، ويرسم تحتها صدى شجرة أخرى صفراء ، ترتعش بالهواء فيصدر احتكاكها صوتا صغيرا خشنا لكنه يدغدغ الحواس .

وقفت طويلا لا أفكر فى شئ وأنا انقل بصرى بين السماء الزرقاء الصافية والشجر الذى ينفض زينته فى الأرض ، تنزل دموعى فلا أقاومها ولا أريد الآن أن أقاومها ، وكأن شيئا فى داخلى يقول إنه من قلب هذه النار الذهبية الوانية ستتوقد روحى وتبعث من جديد ... وبدأت أمزق فى بطء رسالة الطبيب فحمل الهواء قصاصاتها البيضاء وراحت تتطاير أيضا وسط أوراق الأشجار التائهة .

أتراه هو أيضا ، نفسه ، ذلك اليوم الذى قالت فيه بريجيت إنها تحبنى ؟ ذلك اليوم الذى جاء فيه الحب موجة عالية لسابح غشيم ، فغمرته الموجة وصار يشهق فى جوفها ويخبط بيديه لا يدرى إلى أين ؟ .. ولكن لم الكذب ؟ ... كنت يومها أطفو فوق تلك الموجة ، سعيدا ومغرورا ، أنى أنا - هذا العجوز - ، قد أحبته هى، تلك الصغيرة الجميلة ، وأنها من أجلى تدمع عينها وترتعش يدها حين ألمسها وهى تقول فى همس لا يبين : ما الذى يحدث لى ؟ .. ومن أنا لأستحق كل هذا الفرح ؟ ...

وكنت أسأل نفسى : ومن أنا لأستحق كل هذا الحب ؟ ... أليس عارا أن أفرح كل هذا الفرح ، فى هذا العمر ، وفى تلك الأيام ، ووسط تلك الحرب ؟ ..

ولكن ذلك فيما بعد ، فيما بعد - وقتها حين تركتنى أمام باب ذلك المقهى ، مقهانا ، وقالت إنها ستتركنى .. إنها تخشى أن تكون قد أحبتنى .. وقتها وقفت فى الطريق مزروعا كواحدة من تلك الأشجار ، لا أسمع شيئا ، ولا أبصر شيئا غير تلك الكلمات : أخشى أن أكون قد أحببتك ! ... لا أفكر حتى فى معناها ، اتركها تتخللنى كيما تتشرب روحى الجافة المتشققة ذلك الندى الذى أبطأ عنها طويلا ..

أخشى أن أكون قد أحببتك ! ...

شراع أبيض يمرق بسرعة فوق موج أزرق ..

★ ★ ★

وفي المساء نفسه تتكلمين ، يأتي صوتك في التليفون صغيرا ومذنبا : هل يمكن أن أراك ؟ .. ونلتقي فتسقط كل حساباتي . تضيع كل الكلمات التي أعددتها لكي أردك وأرد نفسي إلى العقل . آخذك في ذراعي بمجرد أن أراك . أقبلك في فمك . أمسك ذراعك . أضمك . أبعدك عني قليلا كيما أرى وجهك ، لكي أثق أن هذه أنت وأنني أنا ثم أضمك من جديد ..

نمشي في الشوارع الخافتة الضوء . أضم يدك وتضمين يدي . تقولين كأنك تكلمين غيري . لم يكن هذا عدلا . لم يكن عدلا أن ألقاك وأن أحبك .. ولا أفهم ما تقصدين بالضبط ولكني أكمل لم يكن هذا عدلا أن ألقاك في هذا العمر وأن يأتيني كل هذا الحب . لكننا مع ذلك كنا نضحك . كنا مدهوشين وكنا سعيدين . وكنت تمشين بسرعة ، كأنك تجذبينني من يدي ، تطئين الأرض بخفة كعادتك ، كأنما تلمسينها بأصابع قدميك وحدها ، وكنا قد دخلنا دون أن ندري تلك الحديقة وأخذنا نمشي في ممراتها التي ينيرها القمر وحده وأنا أحبك والليل الجميل غلالة تضمنا وأنا حولك وأنت حولي ورأسك على صدري وتتحسسين يدي وتسألين هل تشعر بالبرد فأقول لا وترفعين رأسك قليلا وتغمغمين بشئ من الحيرة هل كل هذا صحيح ؟ ألا نحلم ؟ .. وأقول وحتى لو كان حلما فما أجمله . ويصحو في الليل طائر يرفرف بجناحيه على شجرة وتسقط من الشجرة ورقة فوق رأسي فتفرحين بها وتضعينها على شفتيك وتستديرين نحوي وأرى في ضوء القمر وجهك المستدير وسط هالة شعرك الذهبي وتبتسمين فتظهر تلك الخطوط التي أعشقها في ذقنك وحول عينيك وتسألينني لم تحب أن تقبلني في النور ؟! فأقول لأني أحب أن أرى وجهك ، فتردين ولكني أراك وأنا مغمضة العينين .. من شهور طويلة أراك وأنا مغمضة العينين وتسبلين جفنيك فأقبل هاتين العينين وتضعين أصابعك الطويلة الناعمة حول رأسي فأقبلك مرة أخرى ، ولكني أسمعك وكأنك تعتذرين أنت تؤلمني

فأتراجع وأعتذر أنا ، وتسندين رأسك على كتفى وأنت تقولين ولكنى أريد هذا الألم ثم تقبلينني قبلات سريعة فى وجهى كله وفى جبهتى وتقولين بأنفاس متقطعة ما الذى يحدث لنا ؟ .. فأقول لك ها أنا أحبك مثل صبى صغير . انتهى عمرى ولكنى أحبك وكأنى أبدأ هذا العمر .. فتقولين بضحكة صافية وأنت تضعين رأسك فى صدرى ولكن ألا تعرف أن كل المحبين صغار لا عمر لهم وأن الحب طفل ؟ .. وكنت أعرف أيضا أنها كذبة ولكن ما أجمل هذا الكذب ! .. ما أجمل هذا الوهم ! .. وأنا أحبك ، وأنت معى ، فى الليل الحنون ، فى الحديقة الحانية ، ولا تعودين صغيرة ولا أعود كهلا ولكنا مجلوان معا فى ذلك القمر الفضى ، فى عمر واحد ، دون عمر ، فى قلب الحب الطفل ، فى الزمن الوحيد الأبدى ، وأنا أحبك ، وأنت معى ..

وكان هذا فى البدء ، ليلة أصبحنا واحدا .

وإذ أرجع من عندك فى ليلة الحب تلك وقد اكتملنا واجداً ، أسير وسط كتل البيوت الحجرية المظلمة التى تثقبها كوى النور القليلة السهرانة ، أسير وأنا أشعر بالبرد فأضع يدى فى جيبى معطفى وأحث الخطى ، ولا أريد مع ذلك أن أرجع إلى البيت ، لا أريد أن يقيدنى مكان ، أتمنى لو أحلق فوق هذا العالم الجدارى الأصم الكثيف وأنت معى إلى دنيا أخرى ناعمة وشفافة لا يحدها الطوب ولا المواعيد ولا الصحف والحروب ولا الجوع ولا الموت ولا هموم الأمس ولا مفاجآت الغد – دنيا نصنعها معا ، لا عمر لها حتى ولو كانت قصيرة العمر ، هنا والآن ، دنيا تصحح كل الماضى وتمحوه ، دنيا تصلح كل الحاضر ولا تبقى شيئا غير الفرح ...

لا شئ غير الفرح !

وكأنما كانت تلك الرغبة عدوى أصابتنا معا !

أذهلتنى ليلتها وفى الليالى الأخرى قدرتك على الحب : رغبتك فى أن نقضى الليل كله ساهرين وفى أن نفعل كل شئ بعمق وكأنه لن يأتى أبدا أى غد . كأن علينا أن نقتنص الفرحة لأننا لو لم نفعل الآن فستضيع إلى الأبد : كنا نتحاب

وتصرين على أن أقرأ لك شعرا وتقرئين أنت لى ونخرج فى عمق الليل لنتمشى فى الشوارع الخالية الباردة متعانقين ثم نرجع لنستأنف كل شئ من جديد . ولم أكن أصدق أننى معك ، يمكن أن أكون فعلا دون عمر ولكنى كنت أكثر حرصا منك على ألا تضيع لحظة واحدة من عرسنا الليلى المستمر .

وكانت لك طقوسك . تحبين أن ترقدى متكورة على جنبك وركبتاك عند صدرك وأنت مغمضة العينين . إبهامك فى فمك تمتصينه بصوت خافت ورتيب ، وأميل عليك فتتظاهرين أنك أجفلت من نومك وتصدرين غمغمات وكلمات ناقصة لا معنى لها كمناغاة طفل رضيع وأنت تمدين ذراعك لمعانقتى . وتقولين بصوت صغير قبلنى .. قبلنى كثيرا .. قبلنى فى كل مكان ، ولم أكن بحاجة إلى مجهود كبير لكى أفهم أنك تحبين كل ما يردك للطفولة . قبل أن تستيقظ فيك الأنثى كاملة وناضجة.

أفهم .. ولكن كيف أفهم ما حدث لى أنا ؟ .. كيف استطعت فى ذلك الخريف المتأخر من العمر أن أكون ندا لفتوتك العارمة ؟ .. أن أغوص معك فى تلك الدوامات الليلية فلا أغرق فيها ولاأنتهى ؟ .. وأين ذهب الضغط والصداع خلف الرأس وتلك الزغللة التى لا تنتهى فى العين ؟

أوشكت أن أضحك حين قال لى الطبيب فى يوم الكشف الدورى : هل رأيت ؟ .. ها أنت الآن توشك أن تكون عاديا تماما . أرى أنك تتبع النصيحة . لا انفعالات ولا مبالغة فى أى شئ : أليس كذلك ؟

قلت نعم .

فقال – والصحافة . هل غيرت مهنتك ؟

– امتنعت عن الصحافة .

– هذا أفضل بكثير . فى مثل حالتك يحسن أن تتجنب كل ما يرفع الضغط .

ولم أكن أكذب على الطبيب . كنت قد توقفت منذ مدة طويلة عن كتابة الرسائل إلى الصحيفة وعن مجرد الاتصال بها . كانوا سعداء بذلك وكنت أنا سعيدا .

لكم كنت سعيدا ! .. فجأة فى تلك الأيام أشرق فى ذهنى أنى حاولت كل شئ أن أكون ابنا طيبا وزوجا جيدا وأبا بارا وإنسانا له مبادئ وصحفيا له ضمير

وعجوزا وقورا يدبر لمستقبل أبنائه بعد أن يموت .. أشرق فى ذهنى أننى حاولت كل شئ غير الفرح .. غير أن أكون سعيدا داخل جلدى .. فأية نعمة أن أعرف فى حياتى ، ولو تكن هى مرة قبل النهاية ذلك الفرح المقدس الذى لا يبغى غير ذاته .. أشرق فى ذهنى أننى كنت عبر تلك الشهور مع بريجيت أتلمس الطريق إلى حقيقة كانت هناك طوال الوقت ، ولكنى كنت أعمى عنها : أننى ظللت باستمرار أمثل أدوارا حتى غاب عنى أنا نفسى ، وسط كل تلك الأقنعة ، وجهى الحقيقى .. أننى حتى لم أحلق فى التمثيل عاليا .. كان جناحاى أنا أيضا من شمع ذابا فى شمس الحقيقة .. ذابا فى بطء معذب أوشك أن يقتلنى ... فما أسعدنى لأنى أخيرا سقطت على الأرض ! ..

من أكون ؟ .. ها أنذا أعرف أخيرا من أكون .. لست مهما على الإطلاق ! لم .. أكن مهما فى أى وقت ! .. ابن الفراش .. نائب رئيس التحرير .. دخلت بورسعيد .. صعدت جبال اليمن .. طظ .. طظ .. طظ .. ماذا فعلت فى حياتك بعدها ؟ ... عشت تتلذذ بتعذيب نفسك كما قال إبراهيم .. لم تفعل حتى مثل ماريان ولا مثل إبراهيم ولا حتى مثل مولر .. واجهت الحرب الحقيقية فأسرعت تعقد صلحك المنفرد ثم رحت تعتبر نفسك ضحية وشهيدا .. شهيدا لأى شئ .. ضحية لمن غير غرورك وضعفك وطمعك بأن ترد للدنيا صفعة لن تردها أبدا إلا بأن تسرق منها السعادة ؟ .. أية فرحة إذن لأنى أخيرا قد سقطت ! .. أية فرحة أن أفقد الآن كل ذلك الماضى لكى أجدك يا بريجيت ! ..

وما بقى الآن فهو السعادة ! .. لاشئ غير السعادة ..

معذرة أيها الأمير هاملت ! أترك لك أنت ألا يبقى سوى الصمت . أنت يليق بك الصمت الجليل وأنا ما كتب لى أن أكون أنت . إن أنا إلا عجوز مخدوع شقشق لحظة بالكلمات فلم تدو الكلمات إلا فى أذنيه .

معذرة أيها الأمير ، لأن ما بقى لى هو السعادة ! .

وسامحنى يا إبراهيم ، لأنها لا ترجع لى فى آخر العمر كعقاب ، بل ترجع نعمة .

الفصـــل الثـــامن

دع هذا اليوم يبطىء

نسيت أشياء كثيرة فى تلك الايام من بينها حكاية الامير حامد . بعثت له مع ذلك رسالة شكر مع يوسف بعد أن خرجت من المستشفى ثم غاب عن ذهنى تماما هو ومشروعه الصحفى . لكن يوسف اتصل بى بعد فترة ليقول إن الأمير «يسعده» أن يرانى ، شعرت فى لهجة يوسف بنوع من الإلحاح فحددنا موعدا .

اصطحبنى يوسف إلى الجناح الذى يشغله الأمير فى فندق يطل على النهر ويرجع طرازه إلى قرن مضى ، تميزه نوافذ عريضة عالية، تحيط بها فى الصيف زهور منسقة خلف أسيجة من الحديد المشغول على شكل قلوب صغيرة متجاورة.

وقلت ليوسف ونحن فى المصعد الخشبى العتيق الذى كان يئز ببطء فى طريقه إلى الطابق الثالث : هذا أمير من نوع خاص جدا . لماذا لم ينزل فى واحد من الفنادق الحديثة التى يفضلها الأثرياء العرب هنا ؟

فرد بلهجة ملغزة . ستراه الآن بنفسك وتعرف كيف هو .

فتح لنا الباب شخص أسمر ضخم . هندى الملامح، قادنا بوقار عبر ممر يجتاز غرفا مغلقة إلى صالون واسع تكشف نافذته النهر . وانتظرنا هناك لحظة قدم لنا أثناءها تابع آخر أسمر يرتدى سترة بيضاء وقفازاً أبيض مشروبات مثلجة .

نظرت إلى ساعتى ، وكانت هى السادسة بالضبط حين فتح الحارس الآسيوى الذى استقبلنا الباب على آخره، وظل يمسك به بينما دلف من الباب شخص وراءه فتاة شقراء تمسك مفكرة وقلما . فهمت أنه هو الأمير حيث هب يوسف واقفا وقال له الآخر بطريقة عابرة .

ـ أهلا يا يوسف .

وقفت أنا أيضا وهو يتقدم منى بيد ممدودة على آخرها ويقول بلهجة ودودة:

- أهلا بالأستاذ ..

ضغط على يدى وهو يقول : حمدا لله على السلامة . كنت مشغولا عليك ..

وغمغمت بعبارات الشكر والأمير يجلس قبالتنا على أريكة وهو يبسط يده نحونا قائلا تفضلوا .. تفضلوا ..

وبمجرد أن جلسنا سألتنا الفتاة الشقراء باللغة الانجليزية عمّ نشرب وهى ترفع المفكرة التى تحملها ، فقال لها الأمير بانجليزية لا شائبة فيها وهو ينظر نحو يوسف :

- صديقنا يفضل نبيذك المعتق على ما أظن ..

أومأ يوسف برأسه موافقا والتفت الأمير نحوى بنظرة مستفهمة فقلت القهوة دون كافيين .

قالت الفتاة الشقراء: وسموك ؟

رفع يده دون أن ينظر نحوهافأدركت أنه لا يريد شيئا وانسحبت على الفور ومن ورائها الحارس الذى أغلق باب الصالون .

كان الأمير حامد فى حوالى الخامسة والثلاثين ، مدور الوجه، حليق الذقن ، تميل بشرته الى البياض ولكن بملامح شرقية واضحة ، يؤكدها شعره الفاحم السواد وعيناه العسليتان اللامعتان ، وكان يلبس بذلة كحلية وربطة عنق تتداخل فيها زخرفة منمنمة من ألوان سماوية وصفراء هادئة. وبدا أميل الى القصر لكنى شعرت على الفور بحضوره القوى .

كرر الأميروهو ينظر نحوى : حمدا لله على السلامة . كنت قلقا عليك بالفعل لولا أن يوسف كان يطمئننى باستمرار ..

نطق يوسف لأول مرة قائلا بحماس : كنت انقل له تحيات سموك دائما .

وقلت أنا : شكرا يا سمو الأمير . غمرتنى بفضلك أثناء المرض بتلك الزهور . كانت تحمل لى كل يوم رسالة من الأمل .

فقال وهو يستند بظهره الى الأريكة المذهبة المساند ويخرج من جيبه الداخلى مسبحة كهرمانية :

- هذا أقل ما يجب ، لا أدرى إن كان يوسف قد قال لك أم لا ، ولكنى كنت من قرائك في فترة دراستي في مصر فى كلية فيكتوريا . لم أنقطع بعد ذلك عن متابعتك عندما كنت أدرس فى انجلترا ، ولكن ..

أكملت : ولكن لم يكن هناك الكثير لتتابعه !

فقال وهو يحرك حبات مسبحته : يؤسفنى ألا يأخذ قلمك الآن المكان الذى يستحقه ولكن كلنا نعرف الظروف .

ثم أضاف باستهانة وكأنه تذكر شيئا : أعرف جيدا رئيس التحرير عندكم . أعرفه منذ كان مراسلا لصحيفتكم فى بلدنا ، هو يعنى صحفى وانسان .. ربنا يسهل له كما تقولون فى مصر !

قلت بهدوء : هو زميل قديم . ربما اختلف معه فى الرأى .. ولكنه انسان طيب بالفعل . كان موقفه كريما معى أثناء مرضى وبعده .

وفى تلك اللحظة فتح الحارس الباب ودخل الخادم بالقفازات البيضاء ، وبعد أن وضع المشروبات أمامنا انصرف وهو يتحرك نحوالباب بظهره وقال الأميرحامد:

- فى الواقع ان فكرتى كما شرحتها ليوسف هى أن نصدر صحيفة صغيرة ولكنها تضم صفوة الأقلام العربية . أقصد الأقلام القومية والتقدمية. أنا أعرف اتجاهك الناصرى بالطبع ، ويخطئ من يحسب أننا كنّا ضد المرحوم ناصر. بالعكس نحن ، أو على الأقل أنا ، أعرف أنه الوحيد الذى حاول أن يصنع شيئا لهذه المنطقة . لم يكن أحد يسمع بنا قبله ولكنه أعطى لبلادنا قيمة فى العالم . وكان يتعلم من أخطائه ، عرف تماما قبل أن يموت أن السوفييت كانوا يخدعونه وأنه لا مصلحة لنا فى أن نناطح أمريكا . وكان على وشك أن يتغير وأن يغير ولكن..

وتذكر شيئا فضحك ضحكة صغيرة وهو يقول : فهم رحمه الله أخيراً روح

الشعب . أنت تعرف رأينا فى مسألة زيارة الأضرحة . ولكنى تفاعلت مع ذلك عندما زار ضريح السيدة زينب بعد النكسة . وإن كان الوقت لم يمهله.

ثم تنهد الأمير وهو يتأمل مسبحته كأنه يخاطبها : انظر الى ما وصلنا إليه . انظر الى حالتنا الآن فى لبنان .

قلت بالرغم مني : فى الواقع إننى لا أرى الآن ما يحدث فى لبنان ولا فى غيره. الطبيب ..

قاطعنى الأمير : أعرف .. أعرف . الطبيب منعك من أى انفعال . وأنا بالطبع أكثر منه حرصا . لا أريدك أن تعرض نفسك لشئ يمكن لا قدر الله أن يحدث انتكاسة . بالعكس . أعتقد أنك فى حاجة الى فترة من النقاهة . ما أفكر فيه الآن وما طلبت من يوسف أن يحدثك عنه هو أن تشارك معنا بالتفكير النظرى فى هذه المرحلة . أريد أن تفكر، بهدوء كامل بالطبع وبراحتك تماما فى تصورك الخاص لصحيفة قومية فى هذه المرحلة . كيف تكون هذه الصحيفة شيئا لا يكرر الصحف الأخرى التى تصدر هنا فى أوروبا . ما هى الأبواب التى تتصور أن تتضمنها ؟ .. ومن هى الأقلام التى يمكن أن تساعد فيها للخروج بتصور جديد للفكر القومى ؟ وما هو الشكل الذى يجب أن تأخذه .. وهل تكون اسبوعية أو نصف شهرية أو حتى يومية إلى آخر هذه الأشياء ..

قلت فى حذر : ولكن سموك تعرف أولا وقبل كل شئ أن الصحيفة مشروع يستهلك اموالا طائلة ومستمرة فى كل عدد .قبل التفكير فى هذه الأشياء يجب أن نفكر فى حجم الجمهور الذى سيقرأ هذه الصحيفة ، وأهم من ذلك فى الإعلانات لأنها مصدر التمويل الأول ..

قال الأمير بلهجة باترة : لا تحمل هما من هذه الناحية . أنا كلفت من يدرس الناحية المالية للموضوع وأعرف بالضبط تكاليف الطباعة والتوزيع سواء كانت الصحيفة أسبوعية كما أميل أنا الآن، أو حتى لو أصدرناها يوميا .يمكن أن أتحمل ذلك لأنى لا أفكر فى الربح ، بل أتوقع الخسارة . ألم تقل له ذلك يا

يوسف؟

كان يوسف يجلس فى مقعده منحنيا ويتابع حديثنا بانتباه دون أن ينبس بل دون أن يلمس حتى كأس النبيذ الموضوعة أمامه ، وحين سأله الأمير قال :

– فى الحقيقة أنى فضلت أن تعرض سموك عليه المشروع بنفسك لأنك أدرى بأبعاده .

قال الأمير حامد مستنكرا : تعنى أنك لم تعرض عليه أهم شئ وهو أن يسافر فترة للنقاهة لكى يفكر بعدها فى كل هذا ؟ .. ألم أكلفك بذلك ؟

غمغمت بالشكر ولكن الأمير قال :

– أنا لا أجاملك يا أستاذ . إيمانى أن الكتاب ، أقصد الكتاب الحقيقيين ، هم أثمن ما نملكه ، لأنهم هم الذين يشكلون العقل والضمير . هل تظن أننا كنا سنصل إلى هذه الحالة لو لم تكن الأمة معتلة الضمير ؟ .. لهذا أعتقد أن المحافظة على كتابنا من أوجب الواجبات ، ولهذا سمحت لنفسى أن ألح على يوسف منذ خروجك من المستشفى أن تذهب لتريح نفسك تماما فى أى مكان تحبه، وسمحت لنفسى أن أرسل معه مساهمة متواضعة لهذا الغرض ، أعتبرها فى الحقيقة واجبا لا أكثر .

ثم التفت إلى يوسف بنظرة تأنيب قائلا : ما معنى هذا؟ .. أنا فى الواقع فى دهشة لأن الأستاذ مازال هنا حتى الآن ولهذا طلبت أن أراكما . ماذا فعلت يا يوسف فى التكليف الذى طلبته منك ؟

صعد الدم إلى رأسى ونظرت الى يوسف الذى وضع يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج ظرفا طويلا وضعه على المنضدة التى تفصل بيننا وبين الأمير وهو يقول : ها هو الشيك الذى أرسلته سموك لم أعطه للاستاذ ولم أصرفه..

ولكنى قاطعته قائلا بشئ من الحدة: أنا شاكر جدا ولكنى لا أقبل .. أقصد أنى لا أحتاج الآن إلى أى سفر أو نقاهة ..

وقال يوسف وهو يشير نحوى :لهذا السبب لم انفذ طلب سموك . لم أعتقد أن الاستاذ سيقبل هذا منى أنا، قلت أيضا إن الأفضل أن تعرض سموك عليه ذلك .

كان الأمير يحدجنى بنظرة فاحصة يكاد يكون فيها نوع من البرود وقد كور سبحته فى يده ،ثم التفت يخاطب يوسف وهو يشير الى الظرف الأبيض بإصبعه:

– ضع هذا الشئ فى جيبك أولا ..

واسترد الأمير حامد بسرعة تعبير وجهه السمح والتفت يخاطب يوسف بلهجة ودية : ولكن كيف إذن تريد أن تصبح صحفيا ؟ .. الصحفى يا سيد يوسف يترجم أفكار الناس على حقيقتها، كان يجب أن تقول للأستاذ إن هذه ليست حتى هدية ولكنها مقابل بسيط لتعبه بالاشتراك معنا في التخطيط للصحيفة . حين تسمح حالته الصحية بذلك بالطبع .

قال يوسف بابتسامة صغيرة : أنا مازلت مشروع صحفى يا سمو الأمير :

أردت أن أغير الموضوع فقلت : ولكن هناك فكرة واتتنى اثناء الحديث .. فهمت أن المطلوب صحيفة متميزة عما يصدر هنا فى أوروبا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير حامد : بالضبط . لا نريد أن نكرر تجارب صحف لندن وباريس ..

– ولكن يوجد الآن بالفعل حشد من الصحف التى تخاطب العرب فى أوروبا . فما رأى سموك فى صحيفة عربية مطبوعة بالانجليزية أو الفرنسية تنقل وجهة نظرنا هنا ؟ .. ذلك هو ما نحتاج إليه بالفعل . كان هنا منذ وقت قريب زميل قادم من لبنان وجد صعوبة فى أن ينشر مجرد خبر أو بيان ..

قال الأمير : فكرة جيدة جدا ..

ولكن الفتور فى صوته أوحى بأنه يعنى العكس تماما . سكت لحظة قبل أن يحنى رأسه مخاطبا حبات مسبحته من جديد : بالطبع هناك صعوبات .. أولا من أين نأتى بالصحفيين العرب الذين يتقنون الكتابة بلغات أجنبية ؟ .. يمكن بالطبع أن نلجأ إلى الترجمة ولكن فى هذه الحالة هل ستخرج المقالات بقوتها الأصلية ؟ . ومن سيكون جمهور هذه الصحيفة ؟.. ستهم قليلا جدا من العرب هنا ولن تهم احدا تقريبا من الأوروبيين .. ثم معنى ذلك أنه سيكون لدينا طاقمان من المحررين: عرب وأجانب ، وهذا كثير إلى حد ما .. أقصد من الناحية الاقتصادية ..

قلت صادقا : سموك تلخص الأمور بمنتهى الدقة وتضع يدك على أهم

المشاكل..

لم يبد عليه أى رد فعل ولكنه قال وكأنه مستغرق فى التفكير : ومع ذلك فهى فكرة جيدة جدا كما قلت . سنحتاج فى وقت من الأوقات إلى مخاطبة الجمهور الغربى ، ولكن فلنبدأ أولا بالصحيفة العربية . وعندما تنجح يمكن أن نصدر ملحقا شهريا أو نصف شهرى باللغة الأجنبية .

قال ذلك وهو ينظر فى ساعته فقام يوسف وتبعته ونهض الأمير وهو يقول : سأنتظر منك أن تفكر فى الموضوع ، ولكن ليس على حساب صحتك كما اتفقنا . بعد أن ترتاح تماما ..

– أعدك بذلك ..

فقال وهو يشد على يدى بقوة : أعرف أنك تحترم وعدك . وفى المرة المقبلة سيكون اللقاء فى بيتى هنا ، فأنا لا أرتاح كثيرا فى الفنادق وسيكون بيتى هو بيتك بالطبع .

ثم التفت الى يوسف وقال : وأنت مهمتك أن تتابع الاطمئنان على الاستاذ . ستتصل بك ليندا إن احتجت منك إلى شئ فى الأيام المقبلة . مع السلامة.

★★★

وبينما كنا ننزل من عند الأمير حامد كانت السعادة تطفر من وجه يوسف ، ولم يملك نفسه فقال ونحن فى المصعد : أنت أعطيته درسا يا استاذ ..

– ماذا تقصد؟

ولكنه بدلا من أن يرد قال وتعبير الرضا عن النفس يغمر وجهه : تعرف ؟ ..لو لم أخرج الظرف عندما سألنى عن النقود ، ولو لم يكن متأكدا أن الشيك فى داخله ! .. ولكنى عملت حسابى ! .. ألم أفهمه بعد كل هذا العمر ؟

– أنا شخصيا بكل صراحة لا أفهمه ولا أفهمك!

رحنا نتمشى على شاطئ النهر مقابل الفندق ، وكانت الأشجار المصفوفة هناك تنفض أوراقها بسرعة أكثر من الأشجار فى المدينة فكنا نخطو فوق ذلك

المهاد من الأوراق الصفراء التى تصدر خشخشة خافتة مع وقع أقدامنا وكنت لسبب لا أدريه أرتاح لهذا الصوت كما لو كان يحمل رسالة مبهجة خفية . لماذا ؟ .. لا أدرى ! ولكن كل الأشياء فى تلك الأيام كانت تحمل رسالة وكانت تحمل بهجة.

قلت ليوسف : كنت أخشى أن تضايقنى هذه المقابلة لأنى لا أحب هذه المجاملات الرسمية، ولكن هذا الأمير شخص مختلف . يدعو إلى التفكير .

قاطعنى يوسف بحماس .. ألم أقل لك ؟ .. هو غير الآخرين .صاحٍ ويفهمها وهى طائرة ! .. ولكن مشكلته أنه يعتقد أنه يمكن أن يشترى جميع الناس . يقول إن لكل انسان سعرا . هل تعرف قيمة الشيك الذى تركه لأعطيه لك ؟

- لا أريد أن أعرف .

- مع ذلك فهو عشرون ألف دولار .

أطلقت صفيرا خافتا وقلت : هذا للنقاهة فقط؟ .. اذن كم اساوى فعلا عند الأمير ؟ .. ولماذا ؟ .. ما أهميتى بالنسبة له ؟ ..

قال يوسف متحيرا وكأنه قد فكرأيضا فى المسألة من قبل : بصراحة لا أعرف. بالطبع هذا المبلغ بالنسبة له مثل قرش تعريفة بالنسبة لى . هو يصرف مثله كل يوم وربما أكثر. هل تصدق أن جناح الفندق محجوز له على مدار السنة حتى اثناء سفره ؟ بالاضافة إلى غرف الحراس والموظفين والسكرتيرين والخدم ..

- ولكن ماذا يفعل هنا بالضبط ؟

- عنده كثير من الشركات ، وهو يتاجرفى الخيول العربية وفى البورصة وفى كل شئ. وعنده ايضا شركات فى امريكا وفى بلده وفى كل مكان فى الدنيا ..

- ولكن شخصا مثل هذا يا يوسف ما حاجته إليك أو إلى ؟ يستطيع أن يشير باصبعه فيجد بدل الصحفى مائة ، فلماذا نحن ؟ ..

- سأقول لك..

ولكنه تراجع وقال بلهجة ضارعة تقريبا : ومع ذلك فأنا أرجوك أن تفكر فى

المسألة !.. أقصد أنت يمكن بالفعل أن تقدم له هذا المشروع ، أليس كذلك ؟

– لا توجد مشكلة فى هذا . عملت طول عمرى بالصحافة ويمكن أن أقدم له هذه المشروع فى خلال أيام ، ولكن لماذا ؟ .. هل هو بالفعل حريص على العروبة والقومية كما يقول ؟

أطلق ضحكة متقطعة ساخرة: ها.. ها .. ها .. مؤكد أنك لم تبلع هذاالطعم يا استاذ ؟

قاطعته بشئ من نفاد الصبر :

– إن كنت تعرف شيئا يا يوسف فلماذا لا تقوله فورا ؟

بدأ كلامه بشئ من التردد : صدقنى أن ما أعرفه قليل . أعرف لماذا يريدنى أن أعمل معه ، أو أظن أنى أعرف . السبب أن عندئ اقامة شرعية فى البلد وربما احصل على الجنسية قريبا واستطيع أن استخرج تصريحا للصحيفة باسمى . وثانيا فهو يثق بى لأنى عملت عنده سائقا لفترة وهو يعرفنى تماما . وأعرف أيضا بالتقريب لماذا يريد أن يصدر الصحيفة ..

– هذا هو المهم . لماذا ؟ أدخل فى الموضوع مباشرة يا يوسف .

– الأمير حامد يا سيدى شقيق أصغر لحاكم البلد ، ولكنه يعتقد أنه أحق بأن يكون ولى العهد بدل الشقيق الأكبر ، لأن ولى العهد غير متعلم ويقول البعض إنه هنا أبيض..

قال يوسف العبارة الأخيرة وهو يمسح جبهته بيده ، لم أكن سمعت هذا التعبير من قبل ولكنى فهمت معناه وواصل يوسف كلامه : ومع ذلك فالحاكم يخاف من ولى العهد لأن له انصارا . ويخاف أيضا إن عين الأمير حامد بدله ..

فقاطعته ضاحكا ..

– أن يأخذ الأمير حامد مكان الحاكم نفسه !

– عليك نور يا استاذ . والصحيفة على ما اتصور ستكون سلاحا يحارب به ولى العهد ويضغط به على الحاكم . لهذا اوشكت أن اضحك عندما تكلمت

حضرتك عن الصحيفة الافرنجية وعن نشر مشاكلنا فى أوروبا وهذا الكلام . اعتقد يا سيدى أنه يريد صحيفة قوية بالفعل يتكلم عنها الناس وتكتب فيها أقلام كبيرة ، ولكن ما يهمه من كل هذا هو بلده فى الخليج . عشرة أعداد منها تدخل إلى هناك ولو بالتهريب ، وينتهى الغرض من الصحيفة .

سبقت يوسف خطوة وجلست على أحد المقاعد الخشبية التي تواجه النهر فجاء وجلس الى جوارى وقال لى قلقا حين لاحظ صمتى :

– هل أتعبك المشى ؟

– بالعكس . المشى مفيد فى حالتى كما قال الطبيب . ولكنى افكر فيما قلته ، أنت ذكى يا يوسف وتعرف كل شئ فما سبب اهتمامك بالموضوع ؟ .. هل هى مسألة عمل وكسب لا غير ؟

اندفع يقول بشئ من الحرارة : بالطبع أنت تقول لنفسك سائق ومتشرد وطباخ ما علاقته بالصحافة؟ .. أنا ..

قاطعته : أنا لم أقل ذلك أبداً . كل هذه التجارب ستفيدك حين تكتب، ثم إنك شرحت لى أنك درست الصحافة فى الجامعة.

قال والحزن يغمر صوته : أشكرك لأنك تجاملنى ولكنى فى الواقع لم أكن اتصور أن اقترب من سن الثلاثين وأنا فى هذه الحال . كنت منذ الصغرمتفوقا فى الدراسة وكان أبى فخورا بى وتوقع لى مستقبلا كبيراً. من صغرى عشقت الصحافة . فى المدرسة الثانوية كنت مذيع الاذاعة المدرسية. وكنت ارسل مقالات لكل الصحف والمجلات ظهر بعضها فى بريد القراء . وفى الجامعةكنت طالب امتياز فى السنة الأولى وفى السنة الثانية . كانت مجلة الحائط التى أكتبها من الألف إلى الياء تجتذب الطلبة عندما اعلقها يوم السبت كل اسبوع . حتى طلبة الكليات الأخرى كانوا يأتون لقراءتها ، أسميتها «النديم» وحاولت أن استفيد فيها من اسلوب التنكيت والتبكيت فشعر الطلبة أنها تختلف عن الصحف الأخرى التى كانت تملأ الجامعة أيامها فى سنة ٧٥ و٧٦ . وكان أبى يكتب لى عناوين الموضوعات بالخط الثلث بقلم أحمر ويشاركنى برأيه فى تحرير كل عدد ..

لزم الصمت فجأة وقد شرد بفكره بعيدا وقال بعد فترة وكأنه لا يكلمني أوحشني أبي ..

أردت أن أخرجه من الاكتئاب الذى حل به فسألته : وعن أى شئ كنت تكتب فى صحيفتك أيامها ؟

قال والحياة تعود إلى صوته بالتدريج : عن كل شئ يحدث فى البلد . ورثت عن أبى حب عبد الناصر . كان مديرا فى شركة من شركات القطاع العام ولكنه لم يمد يده يوما الى الحرام. وعشنا مستورين حتى بعد خروجه إلى المعاش . كان المعاش يكفينا ويزيد ، اقصد فى البداية. وازددت حبا لعبدالناصر وأنا أرى ما حدث لنا بعد موته . أرى أبى العجوز يتعذب لكى يدبر أمورنا بمبلغ المعاش الذى لم تعد له قيمة بينما اللصوص الجدد يزدهرون فى كل مكان . وكنت اكتب عن ذلك فى صحيفة الحائط كنت اقارن بين حال الانسان البسيط مثل أبى أيام عبد الناصر وما اصبح عليه فى عهد الانفتاح ، رشحت نفسى أيضا لاتحاد الطلبة وفزت ، وشاركت فى كل الاضرابات والاعتصامات التى حدثت ايامها .. ولكن جاءت بعد ذلك جماعات اصحاب الجلابيب التى اطلقتها علينا الحكومة فكانوا يمزقون صحفنا كلما علقناها ، وإن قاومنا كانوا يضربوننا بقبضات حديدية يشبكونها فى اصابعهم امام أعين حرس الجامعة الذى كان يحرسهم وحدهم .

قلت متنهدا : اذن ما قاله ابراهيم المحلاوى صحيح .. أنت حالك من حالنا .

قال يوسف بنبرته الحزينة : لا . غير صحيح . نحن قرأنا لكم وتعلمنا منكم ونحن صغار . ولكن لما وقعت الفأس فى الراس وبحثنا عنكم لم نجدكم .

أوجعتنى كلمته فقلت بلهجة الدفاع عن النفس : ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ .. فى تلك الأيام بالذات التى تتكلم عنها كتبت أنا كتابا عن عبد الناصر ..

ثم وقفت وأنا اكمل : وعلى أى حال فأنا بدأت اشعر بالبرد . وثانيا فقد عاهدت نفسى منذ فترة ألا ادخل فى أى مناقشات وبالذات فى السياسة .

هب يوسف ورائى قائلا : أنا آسف . لم يكن فى نيتى أبدا أن أضايقك . كل ما أردته هو أن أشرح لك لماذا يهمنى موضوع هذه الصحيفة التى يريد الأمير أن

يصدرها أنا لم اتعذب وأتغرب لكى انتهى طباخا ..

وكنا نرجع فى اتجاه الفندق حيث ركنت سيارتى عندما قال فجأة بصوت خفيض :

- أريد يا أستاذ أن أخلص من هذه المرأة !

لم أعلق بشئ . وتغيرت نبرة يوسف وكأنه يريد أن يصحح نفسه فقال :

- أرجوك أن تفهمنى ، أنا لست قليل الاصل،لست مثل الأجانب الذين يتزوجون بنات البلد للحصول على الإقامة ثم يطلقونهن بعد ذلك .. إيلين بنت حلال فعلا .. أقصد .. هل تفهمنى ؟ أريد ..

ولكنه انفجر مرة أخرى : اريد أن أخلص من هذه المرأة !

- سأرى يا يوسف ما يمكن أن أفعله ..

غيرأنى لم أكن افكر وقتها فى حديثه عن ايلين . كانت وخزة لومه لى تجب كل شئ آخر .

★★★

لم يكن عندى موعد مع بريجيت فى هذا المساء ، وقررت أن اكلمها لنلتقى . ولكن عندما وضعت المفتاح فى باب الشقة سمعت صوت أم كلثوم يأتى من المسجل فعرفت أنها جاءت من تلقاء نفسها وخفق قلبى بالفرح . كانت عندى شرائط كثيرة للموسيقى العربية والموسيقى الكلاسيكية غير أنها من كل الشرائط التى عندى لم تعشق سوى صوت الست .

وبمجرد أن دخلت اندفعت بريجيت نحوى فاحتضنتها بقوة . الأصح أنى تشبثت بها وكأنى أريد أن أحتمى .

وشعرت هى بشئ غير عادى فتراجعت الى الخلف وراحت تتأملنى ثم قالت بلهجة تهديد وهى تلوح باصبعها امام وجهى :

- حدث شئ هذا المساء . هل ارتكبت خيانة ؟ .. هل تستحق العقاب ؟ ..

كانت تلبس زى العمل، خلعت السترة وبقيت بالبلوزة الخفيفة البيضاء «والجونلة» القصيرة، وقد حلت ضفيرتها وتركتها تنسدل على كتفها اليمنى، ووقفت تواجهنى مبتسمة وهى تسدد إصبعها نحوى. فأمسكت يدها الممدودة وقبلت تلك اليد وأنا أقودها نحو الكنبة الصغيرة فى غرفة المعيشة . كان مزاجها رائقا هذه الليلة . وأدركت السبب حين رأيت زجاجة النبيذ المفتوحة على المائدة والكمية الناقصة منها .

وحكيت لبريجيت ما حدث فى مقابلة الأمير فقالت متظاهرة بالأسف الشديد وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى :

- ولماذا لم تأخذ هذه النقود أيها الساذج؟.. هؤلاء ناس يقذفون بالنقود من النافذة فعلا . لو كنت أقف أنا تحت النافذة وألقى شخص فوقى عشرين ألف دولار وقال خذيها . هى لك . فهل تتوقع أن أقول لا؟ .. بالطبع سآخذها فورا وأصحبك معى فى رحلة حول العالم ...

- مهما كان الثمن ؟

ولكن الرجل لم يطلب ثمنا كما قلت . يريدك أن ترتاح . يحبك لأنك أنت . ولكن ليس كما أحبك أنا ..

ضغطت على يدها وأنا أقول : لو أصدق أن هذا صحيح!

سحبت يدها من يدى فى عنف وقالت فى غضب : ولماذا أكذب عليك ياصاحب السمو لو سمحت ؟.. سأعيد لك اليخت الذى أهديته لى فى الأسبوع الماضى ..

ولكنها انزلقت فجأة من جانبى وركعت على ركبتيها تحت الكنبة وهى تواجهنى

ووضعت يدها على صدرى وهى تقول : متى ننتهى من هذه الشكوك ومن هذه القصص؟.. متى تصدق فعلا أنى أحبك لأنك أنت ؟.. سئمت القلوب الغبية والقلوب الجشعة والقلوب الأنانية . متى تصدق أنى قضيت عمرى أبحث عن هذا القلب؟..

* قالت ذلك ثم قبلتنى برفق فى صدرى فانحنيت أرفعها نحوى وأنا أقول : ولكنك تعرفين أيضا أن هذا القلب كان فى طريقه إلى أن يموت قبل أن يلقاك .

* فهزت رأسها وقالت : لم أكن سأسامحك لو تركتنى!.. هل تصدقنى؟.. أنا الآن أتعرف على بريجيت الأولى . أكتشفها وكأنى ألتقى بصديق قديم .

ثم قامت فجأة وصفقت بيديها وقالت : هيا، انتهينا الآن من هذه الحكاية . انتهينا منها إلى الأبد ، لن ترجع هذه الشكوك ولن يبقى غير أنت وأنا معا إلى الأبد . والآن فورا إلى الشعر مع صوت هذه السيدة الجميل..

وتوجهت بريجيت إلى رفوف الكتب الموضوعة فى الصالة وسحبت ديوان المتنبى الذى تميزه بغلافه السميك الأصفر وتعرف أنى أحب أن أقرأ فيه كثيرا - ثم فتحت الديوان وراحت تحرك رأسها بسرعة لليمين واليسار وهى تجيل عينيها فى الصفحة المفتوحة وتقول بالعربية كل الكلمات التى تعلمتها منى وكأنها تقرأ شعرا :

السلام عليكم..إزيك.. فين نضارة.. إنت جميلة جدا.. الشاى.. أهلا ..أهلا..

ودفعت الديوان نحوى بعد أن انتهت وهى تقول : هيا .. إقرأ تلك القصيدة التى يوجد فيها البحر تحت شمس ساطعة .. التى تلمس فيها الأمواج الهادئة الشط وتنحسر برفق بينما تجلس النساء فوق الرمال يغزلن شباك الصيد، والأطفال يساعدون أمهاتهم ، وفوق الصخرة يقف صبى يضع يده فوق رأسه ويتأمل البحر الأزرق ، وحين يرى أول القوارب فى الأفق يصيح بأعلى صوته فتترك الأمهات الشباك والغزل .. ويجرين حتى تلمس أقدامهن الحافية الماء وتبتل ثيابهن وهن يلوحن ويتهللن، ويحيى الأطفال عيدا على الشاطىء .. هيا، تلك القصيدة التى قرأتها لى بالأمس .

ضحكت وأنا أقول لها: لايوجد فى هذه القصيدة شىء مما تقولين . لايوجد فيها بحر على الإطلاق ولم يكتب هذا الشاعر شيئا من البحر . لو عرفت معناها ...

لكنها تركت الكأس التى كانت تشرب منها على المنضدة ووضعت يديها فوق أذنيها وهى تقول : ها أنت قد أفسدت كل شىء!.. أبعدت عن سمعى صوت الأمواج .. ثم دفعت الديوان فى يدى وهى تقول : هيا .. إقرأ .

فتحت الديوان كيفما اتفق وبدأت أقرأ من الصفحة التى صادفتنى :

إلى كم ذا التخلف والتوانى

وكم هذا التمادى فى التمادى

وشغل النفس عن طلب المعالى

ببيع الشعر فى سوق الكساد

وما ماضى الشباب بمسترد

ولا يوم يمر بمستعاد ...

أغلقت الديوان وأنا أقول :

- لا أشعر الليلة بالرغبة فى الشعر .

أنزلت يديها إلى جانبها فى يأس فسحبتها وأجلستها إلى جانبى . كانت أم كلثوم قد انتهت وقتها من ليالى القمر وساد الشقة صمت . وظلت بريجيت تميل برأسها على كتفى فترة ولكنها رفعت نحوى عينين زرقاوين قلقتين وقالت :

- صارحنى بالحقيقة . حدث الليلة شىء غير مقابلة الأمير . ما هو ؟.. لماذا لا أشعر الآن أنك معى كما كنت بالأمس ؟

حكيت لها مادار بينى وبين يوسف . قلت لها إننى تحدثت معه عن أحوال البلد وإنه قال إننى خذلته . قال إنه حين بحث عنى لم يجدنى . ظلت بريجيت تتطلع نحوى لحظة دون فهم ثم قالت :

- ولكن ما أهمية ذلك .. ما أهمية أى شىء؟.. ألم نتفق على ألا يهزمنا العالم

مرة أخرى؟ .. ألم نتفق حالا على ألا يكون فى الدنيا سوى أنت وأنا؟..

مدت يدها وهى تقول ذلك ثم رفعت ذراعى ووضعتها حول كتفيها فمددت يدى الأخرى وضممتها إلىّ بقوة وأنا أقول لنفسى نعم، يجب ألا يكون سوى هى وأنا . يجب ألا تهزمنا الدنيا مرة أخرى وكانت هى تكمل بصوت خافت ووجهها فى صدرى : نعم، هكذا .. هذا يدفئنى .. هذا يحمينى . لم أعرف أبداً هذا السلام وهذه السكينة .. إلمسنى ، هل تشعر كيف تغيرت بريجيت؟.. هل تشعر بها الآن امرأة تولد من جديد فى سلام الحب؟..

وكنت تدفعين يدى فى صدرك، وتقولين بصوت خافت ، صوت طفولى ، ولكنه صوت متقطع مبهور الأنفاس – بريجيت ياسيدى .. لم تعرف أبدا مثل هذا السلام فى الحب .. فدعها ياسيدى تستمتع بهذا السلام .. دعها تستمتع به إلى الأبد ..

وكنت أدور حول وجهك كله بشفتى ، أدور حول جسمك كله بشفتى ، ولم أقل لك إن هذا العجوز أيضا لم يولد فى الحب إلا معكْ .

وكانت تلك بالفعل ليلة سلام .

ولكنى عرفت الليالى الأخرى ..

فى أيامنا الأولى الدافئة المشمسة تعودت أن أعبر تلك الليالى ، أن أتجاوزها لأن ليالى حبنا الخالص كانت تغمرها بالنسيان وتمحوها .

غير أنى منذ البدء عرفت وجهك الآخر . حين تجلسين تحت الكنبة ، تضمين ركبتيك إلى صدرك بيديك وأنت تحدقين شاردة فى الفراغ، على وجهك ذلك القناع الذى تختفى وراءه بريجيت .. حين لا يجدى أى حديث إليك ولا أى توسل ولا أى اقتراب فى أن يردك إلى دنيانا .. حين تدفعيننى فى صدرى لكى أبعد عنك ولكى أتركك لشأنك الذى لا أعرفه وأنت مقرفصة هناك فى الأرض ، تتشبثين بنفسك فى تشنج كأنك تريدين أن تدفعى جسمك كله داخل جلدك مرة أخرى ..

تعلمت بالفعل أن أتركك فى تلك الأوقات وأن أنتظر، تعلمت ألا أحاول أن أكلمك أو ألمسك ، إلى أن تعودى أنت نفسك بالتدريج، تتلاشى تلك النظرة الزجاجية فى

العينين وتسترد زرقة الحدقتين التماعها الآسر ، قبل أن تسألينى بلهجتك العادية، فى نوع من الدهشة لم لا تأتى إلى هنا جانبى؟

وعرفت أيضا ليالى الجنون..

حين تقفزين من الفراش فجأة عارية بعد أن تتمتمى بعبارات بالألمانية وتقفى فى صالة بيتك ، تنزعين من رفوف مكتبك ديوانا من الشعر الألمانى وتقلبين صفحاته بسرعة بحثا عن تلك القصيدة التى استدعتك فى قلب الليل، وتبدئين القراءة بصوت عال، يتدرج فى الارتفاع شيئا فشيئا، كما لو كنت فى صحراء خالية ، فألاحقك واضعا يدى على فمك . وأنت تتملصين وتلكزيننى بكوعك لتخلصى نفسك . وتزومين تريدين أن تكملى ذلك الإنشاد المجنون ، لا يردك أن تسمعى طرقات الجيران الساخطة على الجدران ، ولا تذكيرى لك بأنهم يمكن أن يستدعوا الشرطة لهذا الضجيج فى الليل – تسبيننى وتسبين الشرطة والجيران بصوت مختنق ، ولا تهدئين إلا حين أعرضْ عليك أن نخرج ، وأن تنشدى هذا الشعر على شاطىء النهر ، ترتدين وقتها ثيابك فى لهفة محمومة ، وتستعجليننى أن نخرج . ولكن ما إن نخطو خارج البيت حتى تسألينى وأنت ترتجفين : ما السبب فى أنا خرجنا في هذا البرد؟

ولكنى تعلمت أن هذه اللحظات هى جزء منك، وتعلمت بعد قليل أن أحبها لأنها، هى أيضا ، أنت .



على أنى لم أنس الأمير حامد فى تلك الأيام ..

وكنت أسأل نفسى فى دهشة هل مازلت بالفعل صحفيا له حاسة الصحفى؟.. بعد كل السنين التى مارست فيها البطالة فى هذه المدينة الأوروبية أنقل الأخبار الرديئة لصحيفة رديئة؟.. ما الذى أزال عن نفسى فجأة ذلك الصدأ رغم تحذير الطبيب وتحذير بريجيت بألا أرفع السلاح مرة أخرى فى وجه العالم الذىهزمنا؟..

شيء أقوى منى كان يدفعنى أيامها لأن أكون الصحفى الذى مات من قبل ودفنته . شيء يدفعنى إلى أن أبحث وإلى أن أعرف . ولم يكن أمامى سوى أن أطيع .

وبعد أسبوع تقريبا من مقابلة الأمير . توجهت فى الصباح إلى مقهى إيلين.

قابلتنى بابتسامتها المهنية المرحبة . وقادتنى إلى ركن بعيد فى المقهى وهى تثرثر : ألم أقل لك؟.. ألم أبشرك ياسيدى بأننا سنقف على قدمينا بأسرع مما نتصور؟ وها نحن أفضل مما كنا من قبل! ولكن هل تعرف شيئا؟.. ربما كان من الأفضل أن نكف عن هذه القهوة الطبية أيضا . قرأت أنها ليست .. ليست مفيدة جدا . العصير أفضل .

وراحت تتكلم دون انقطاع وكنت أغمغم بالموافقة على ما تقول وأنا أقاطعها عند كل فرصة تسكت فيها بالسؤال عن يوسف . لكنها فاجأتنى بعد أن جلست بأن سحبت هى أيضا مقعدا واستقرت فى مواجهتى .

ظلت تتطلع نحوى لحظة وهى تشبك يديها أمامها على المنضدة ، وكانت ابتسامتها التقليدية تشحب تدريجيا ، ثم قالت :

– كنت أنتظرك يا سيدى . فى الواقع كنت سأتصل بك لو لم تأت اليوم .

تغيرت طبقة صوتها وهى تقول ذلك . اختفت نبرة الثرثرة مع زبون المقهى وأطلت من عينيها نظرة جادة ، توشك أن تكون حزينة وهى تتطلع إلىّ.

قلت فى قلق : ولكن لماذا؟.. هل حدث شيء؟.. يوسف بخير على ما أرجو..

– نعم .. نعم ، بالتأكيد . أما أنا فلست بخير .

سكتت قليلا وأحنت رأسها كأنها تفكر كيف تبدأ الكلام ولكنها فجأة رفعت نحوى عينين ضارعتين وقالت :

– أرجوك أن تترك لى يوسف !

– أتركه كيف؟.. أنا لم أره من مدة ياسيدتى ولم أحاول أبدا ..

قاطعتنى : أعرف !.. أعرف أنك لم تحاول أبدا أن تأخذه ولكنه هو الذى يحاول أن يذهب معك ..

– ولا حتى هذا .. صدقينى .

كان جفناها يرتجفان بسرعة وقالت بصوت متحشرج إلى حد ما :

– إذن فهو يحاول أن يرجع إلى الأمير . يريد أن يعمل صحفيا ويريدك أن تساعده ، أليس كذلك ؟

لم أرد . فقالت وهى تنظر فى وجهى مباشرة : أعرف كل شىء ياسيدى . وأعرف جيدا ما الذى يريده يوسف ، ولو كان معى مال كاف لأصدرت له صحيفة يعمل فيها كما يشاء ...

وحاولت أن تبتسم وهى تقول ذلك وتعبث بالمنضدة بأصابع مرتعشة ، ولم يفلح هذا فى منع غشاوة الدمع التى تكونت فى عينيها . أردت أن أتكلم ولكنها مدت يدها كأنها ترجونى أن أنتظر وهى تقول مغالبة بإرادتها البكاء : لن أستطيع أن أبقى معك طويلا . وقد يخرج يوسف من المطبخ فى أى لحظة .. لهذا أرجوك أن تسمعنى . أنا أحب يوسف .

– هذا طبيعى .

فى هذه المرة أطلقت ضحكة خافتة وهى تقول لا .. لا

ثم أكملت بعد فترة وهى تحول وجهها قليلا عنى :

– لا . ليس طبيعيا وأنا أعرف . هو كان يمكن أن يكون ابنى وأنا أعرف ، هو أوشك أن ينهى الجامعة وأنا جاهلة وأنا أعرف . لكنى أحبه وهو قد رضى بى .. لاتسألنى لماذا رضى . هل قبلنى لأنه كان يبحث عن العمل وعن الاستقرار؟ . ربما . كان يمر بفترة صعبة بعد أن سافر الأمير فى السنة الماضية ولم يكن عنده تصريح للعمل . ولكن جاء قبله كثيرون عملوا عندى . شبان أصغر منه . أكثر وسامة منه . غير أنى لم أفكر فى أى رجل منذ مات زوجى الأول ..

توقفت عن الكلام لحظة ثم أكملت فى تردد : مع يوسف .. كان هناك شىء..

ثم احتبس صوتها مرة أخرى فقلت :

- سيدتى ، الإنسان لا يقرر أن يحب . الإنسان يحب هذا هو كل ما فى الأمر. لاداعى لأن تشرحى لى شيئا ولا أن تبررى شيئا . أنا أصدقك وأفهمك . لا يوجد من يمكن أن يفهمك أكثر منى ..

- إذن فأنت تفهم أيضا خوفى ؟

- بالتأكيد أفهمه .

أبعدت وجهها عنى مرة أخرى وهى تقول بصوت خافت : معذرة، ولكنى لا أعتقد أنك تفهمه تماما . أنا أعرف أن يوسف سيتركنى . بعد حين لابد أن يتركنى. أنا الآن فى الخمسين من عمرى . أعمل كل ما استطيع لكى أظل فى نظره امرأة وزوجة . ولكن كم يمكن أن يستمر ذلك فى رأيك؟ كم يمكن أن يستمر وهو بمثل هذا الشباب وأنا أشيخ كل يوم ؟ سنة؟.. سنتين؟.. أكثر من ذلك قليلا أو أقل منه؟ ليكن ياسيدى . أنا أقبل . أعرف أنها سعادتى الأخيرة ، فأرجوك، أن تتركها تستمر، سيذهب يوسف ذات يوم ، ولكن دع هذا اليوم يبطىء. لا تتعجله. أعرف أنه إن عمل بالصحافة .. إن ترك هذا المقهى مرة، فسيتركه إلى الأبد .. عندما ينبت جناحاه سيطير بلا عودة ، فهل هى أنانية منى أن أريده أن يبقى فى الأرض .. أن يبقى معى؟ .. ربما ..

حل بى حزن عقد لسانى وأنا أنظر إلى وجهها المعذب . هل تتكلم عن نفسها الآن أم عنى؟.. هل أبوح لها أيضا بخوفى من أن يأتى سريعا ذلك اليوم ؟..

كانت تكرر فى ضراعة بما يشبه الهمس وهى تقول : أرجوك ياسيدى .. افعل ما تستطيع .

وابتعدت ولا أدرى ما الذى قلته لها ولكنى كنت مستغرقا فى التفكير حين جاء يوسف أخيرا وصافحنى بحرارة بيده الرطبة وهو يقول :

- مرحبا بالأستاذ . لم أتوقع أن تأتى بهذه السرعة . جلس قبالتى فى المكان الذى كانت تحتله إيلين . وكان قد نسى فى هذه المرة أن يخلع «مريلة» المطبخ

البيضاء ، وسألنى بمجرد جلوسه متوفزا ومتحمساً :

- خيرا إن شاء الله؟ انتهيت من المشروع ؟..

لم أرد عليه فورا . تداخل فى ذهنى ما جئت من أجله وما كانت إيلين تحدثنى عنه منذ قليل ، وانتبه يوسف إلى شرودى فسألنى : الأستاذ متعب؟

- قليلا ، ولكن هذا لا يهم . أردت أن أسألك يايوسف وأرجوك أن تكون صريحا معى ، هل قلت لى كل ما تعرفه عن الأمير حامد ؟

وضع يوسف يده على صدره وقال وفى عينيه نظرة عاتبة : أقسم لك بحياة أبى إنى لم أخف عنك أى شىء مهم أعرفه . ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟

- سأخبرك حالا . فى الواقع إننى دهشت قليلا من إصرار الأمير على أن نتعاون معه أنت وأنا . بصراحة نحن لسنا نجمين فى عالم الصحافة ، وكما قلت لك فهو يستطيع بماله أن يستأجر من يشاء من الكبار ..

- العفو ياأستاذ ، اسمك ...

قاطعت يوسف بإشارة باترة : اسمى لم يعد يعرفه أحد . لا أعيش فى الوهم ولا الكذب . ربما كان البعض يعرفوننى منذ عشرين عاما أو أكثر ، ولكنى الآن لست ورقة رابحة فى لعبة الصحافة .

قال يوسف فى تردد : ولكن هذه بالفعل فرصة لكى يعود قلمك إلى الظهور ، وأنت تستحق هذا وأكثر منه ..

ابتسمت قائلا : بالضبط يايوسف . لابد أن يكون الأمير قد فكر بهذه الطريقة. ها هى فرصة لشخص ضائع لن يتردد فى قبولها .. ولكن دعنا من هذا الآن . أريد أن أسألك أيضا هل تعرف اسحاق دافيديان؟

قال بلهجة ساخرة : بالطبع ، من لا يعرفه؟.. هو «بلدياتنا» ومن أكبر المليونيرات هنا. هاجر من مصر سنة ٥٦ وأخذ جنسية البلد ، وهو يملك الآن نصف العمارات فى المدينة ..

ثم قال بعد سكتة وهو يضحك : مشيت فى مظاهرة ضده .

– مظاهرة ضد دافيديان ؟.. لماذا ؟

– خرج أهالى الحى هنا فى مظاهرة لأنه يشترى البيوت القديمة الرخيصة الإيجار ثم يهدمها لكى يبنى محلها عمارات ضخمة فاخرة، إيجاراتها ضعف دخل السكان الذين شردهم . فأين يسكن هؤلاء ، فى الشارع ؟

– لم أكن أعرف هذه الحكاية . وإلى أى شىء انتهت المظاهرة؟

هز كتفيه قائلا : كما تنتهى كل مظاهرة . رفعنا لافتات ضد دافيديان وذهبنا إلى عمدة الحى وسلمناه عريضة ، أما هو فاستمر فى شراء العمارات القديمة وهدمها .. المتظاهرون يا أستاذ معهم حناجرهم وهو معه المال ومعه القانون ، فما الذى يمكن أن تفعله مظاهرة؟

– معك حق . ولكن هل سمعت أو قرأت أنه تبرع بمائة ألف دولار بعد حرب لبنان لجيش إسرائيل؟.. هل كنت تعرف ذلك؟

– لم أسمع بهذا ولكنه لا يدهشنى. هو من رجالهم المعروفين هنا . يكتب لكل الصحف دفاعا عنهم ، وينظم ندوات ، ويستضيف الوفود التى تأتى من هناك و...

ثم توقف لحظة قبل أن يقول فى دهشة: ولكن ما الداعى إلى كل هذه الأسئلة؟.. ما علاقة دافيديان بما نحن فيه؟

– هل تعرف فيم يتاجر دافيديان إلى جانب العقارات ؟

– فى كل شىء تقريبا . فى الفنادق والبنوك والبورصة وكل شىء ..

نظرت إلى عينيه وأنا أقول :

– ألا تعرف أيضا أنه أكبر تاجر للخيول العربية فى أوروبا؟.. كنت أنت الذى نبهتنى حين تحدثت عن تجارة الأمير حامد فى الخيول . فى الواقع يا يوسف إن أميرك هو أكبر شريك لدافيديان .

تطلع نحوى مبهوتا وخرج منه السؤال كصرخة : الأمير حامد؟ لا !

فقلت مؤكدا : نعم .